أنَا أُفكِّرُ ، إذَنْ فَأنَا غَيْرُ مَوْجُودٍ !

هذه محاولة لإعادة النظر فى التراث العربى الفكرى كله .

كان لابد أن أقوم بها ؛ لأننى ـ وأنـا من أكثر الناس إنشغالاً بالفكر العربى وتراثه ـ كنت أسأل نفسى مرة بعد أخرى : هل أنا وريث أعلام الفكر العربى الماضى من امرىء القيس والجبرتى وحسن العطار ؟ إن رجل الفكر الإنجليزى يشعر شعوراً متصلاً بأنه يواصل عمل شيكسبير وستيوارت مِل وبرنارد شو ، ويواصل عملهم على طريقته وأسلوبه ومطالب عصره ؛ لأنهم يعيشون فيه ، فلماذا لا نشعر نحن بأثر الجاحظ وأبى تمام والمتنبى وابن سينا وابن حزم وبقية الأعلام فى نفوسنا وفكرنا ؟ شعورى الخاص أن الباقى لنا من تراث الفكر العربى قليل جداً ، والباقى رماد .

هذا مجرد رأى ، والباب مفتوح ، والفكر حوار ، والحضارة أخذ وعطاء ، والتاريخ كله حوار بين الماضى والحاضر .

كانت أمة الإسلام أيام رسول الله ﷺ أمة رجال أعزّاء بدينهم ، كانوا أمة القرآن الذى أرسله الله إلى قوم يعقلون ؛ أى يفكرون ، ولأنهم كانوا يفكرون فقد كانوا صحابة لرسول الله ، وما أعظم أن تكون لرسول الله صاحباً ! ..كانوا أنصار الله ، وما أعظم أن تكون لله ناصراً ، فلما ذهبت أمة الأحرار والصحابة وأنصار الله ، قامت دولة الخليفة الكسرى القيصر ، وأصبح الحكم للسيف ، والسيف والفكر لا يجتمعان ، وسيف الطاغية هوى على رءوس المفكرين ، وتحولت الأمة إلى رعية .. أى إلى قطيع .

عندما كتب رينيه ديكارت عبارته المشهورة : « أنا أفكر ـــ أو أدرك ـ إذن فأنا موجود » .. كان يعلم إنه بهذه العبارة القصيرة التى كتبها باللاتينية Cog, To, Ergo Sum قد هدم كل بناء العلم القائم إلى عصره ١٥٩٦ ـــ ١٦٥٠ ، فإن معظم ما كان يتناقله الناس من العلم إلى أيامه فى العالم الكاثوليكى كان يقوم على التسليم بالموروث فى كل ميادين المعرفة : التسليم بكل ما وصل إلى أهل العصور الوسطى من علم أرسطو ، والتسليم بكل ما كان يردده أهل الطب والنجوم وما إليها مما كان يدخل فى نطاق العلوم .

والتسليم بكل مـا ورد فى الكتاب المقدس : أسفـار بنى إسرائيل والأناجيـل الأربعة التى أقرتها الكنيسة ورسائل بولس وكتابات آباء الكنيسة ، وكل ذلك مكتوب فى لاتينية عسيرة على الفهم ، مغلقة إلا على الراسخين فى علوم الدين .

ثم التسليم بكل ما وصل إليهم من قرارات المجامع وأقوال البابوات ، والتسليم بأن جميع البابـوات معصومون من الخطـأ والغلط أو الوقوع فى أيسر الخطـايا ، والتسليم بسلامة كل ما كان قائماً إذ ذاك من نظم السياسة والمجتمع .

أمـام هـذا الجدار الهائل الأصم من التسليم المطلق وقف ديكـارت وقـال : إن كل شـىء ينبغى أن يوضـع موضـع الشك de omnilus dubitando ومن الشك ينتقل الإنسان بـالفكر والبحـث والدرس ليصل إلى اليقين ، وجـود الإنسان نفسـه يحتاج إلى دليل ! وعبارة ديكـارت التى ذكرتها هى فى الحقيقـة جواب على سؤال أطـال هو التفكير فيه ، هو : وما الدليل على أننى كائن أو موجـود ! الدليل على أننى موجود هو أننى أفكر وأدرك الأشياء من حولى ، فإن الذى يجعلك تشعر بوجودك هو فكرك ، أو تحرك ذهنك ، والحيوان يعيش ويتحرك ويأكل دون أن يشعر بوجود نفسه ، لأنه لا يملك الذهن الذى يتحرك ويدرك .

والتسليم بالموجود القائم ينتهى بالذهن إلى الركود .

وأنت عندما تسلم بكل شىء تكون غير مـوجود ، وعندما تسكن وتصمت والحياة تتدفق من حـولك ، فإنك غير موجـود ، وقد قرأت كلمـة جميلة فى إحـدى مقالات أنيس منصور الأخيرة ، فقد ذكر أن (جيته) قال فى ختام حوار ممتع بينه وبين بيتهوفن : إذن فنحن أحياء فقط عندما نتكلم ! والمراد : عندما نقول كلاماً صادراً عن فكر .

وإذا كان التسليم المطلق يعنى إلغاء الفكر والإحساس بالوجود ، فإن التفكير يعنى الحياة بـالنسبة للإنسان ، وأول حـركة للفكر هى الشك حتى فى الوجـود نفسه ، وعن طـريق الشك يصل الإنســان إلى اليقين ، واليقين فى شىء ينقلك إلى الشك فيما يليـه . فأنت إذا أيقنت بوجودك وجدت نفسك تسأل : ولماذا أنا موجود ؟ وتتصل حركة ذهنك ، فتنتقل من شك إلى يقين ، ومن يقين إلى شك ، ومن شـك إلى يقين ، وهكذا يـرتفع بنـاء العلم اليقينى الذى لا يتوقف ، وعلى العلم اليقينى وحده يقـوم بناء حضارات العمران ،

أما الأوهـام والتخيلات والفـروض والمسلَّمات فلا يقـوم عليها بنـاء حضارى نـافع ، وحضارة الأنكا مثلاً ركدت ثم تحجرت ؛ لأنها قامت على أوهام ومخاوف وتخيُّلات .

وهذا مثل واحد من حضارات أخرى كثيرة قامت على أوهام وخرافات وعاشت على الأوهام والخرافات . وماتت تحت ركام الأوهام والخرافات .

ديكارت إذن أيقن أنه موجود عندما أدرك أنه يفكر .

وعلى هذه البـداية الصغيرة قـام بناء الفلسفة الكـارتية كلهـا ، وعلى قاعـدة الفكر الكارتى قام الفكر الغربى الذى دخل فى دور الحركة المتصلة من ذلك الحين ، وعلى الفكر المتحرك دائماً من الشك إلى اليقين قـام بناء الحضارة الغربية كلهـا ؛ لأنهم تعلموا كيف يبنـون كل أشيائهـم على أساس الفكـر المنظم والعلم الـدقيق النـافع ، وديكارت كـان لاهوتياً ، ولكنه كان كذلك ريـاضياً وصاحب علوم ؛ لأن الغرب تَعَلَّمَ منه كيف يصل إلى اليقين فى أى شىء يفكرون فيـه عن طريق الشـك فيه ، فإذا انتهى إلى اليقين فى أمـر بدأ الشك يساوره فيما يليه ، وكل جواب عندهم يصبح سؤالاً عن شىء يليه ، وذلك هو سر الحيوية والقوة فى فكر الغرب وحضارة الغرب .

وكـلاهما يقـوم على منهج علمى يطبقـونـه على كـل شىء ، والمنهج أو النهج هـو الطريق ، ومن هنـا فقد أصبحت الحيـاة عندهم نهجاً أو منهجـاً بلا نهايـة ، فاتسعت رحـابها وامتدت آفـاقها حتى تخطت حـدود عـالمنا الشمسى ، وبـالأمس فقط وصلت مـركبة فضـائية أطلقهـا الأمريكيـون من أحـد عشر عامـاً إلى أقصى عالمنـا الشمسى وخرجت منه وانطلقت فى فضاء الله الشاسع وهى نابضة بالحياة ، ولا تزال ترسل لهم الإشارات والصور عن عوالم أخرى ، وهذا كله بدأ من عبارة ديكارت التى ذكرناها .

ويستوقف انتباهنا أن منهج ديكـارت : منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك موجـود عندنا منذ أن أكرمنـــا الله بالقرآن ، ولكننـا لم نحسن تطبيقه ولم نطق الصبر عليه .

وهذا هـو السبب فى ركود الفكـر العربى وتـوقفه بعـد حقبة من الـزمان طـويلة ، والقرآن نفسه يقـول : إن الله يحب عبده الذى يصل إلى اليقين عن طـريق الشك ، وكلنا نذكر آيات سـورة الأنعام التى ترينا كيف أن إبراهيم ـ عليـه السلام ـ وصل إلى اليقين

عن طريق الشك المتجدد ، ففى بحثه عن خالق الكون رأى كوكباً فظنه ربه ، ثم وجده يأفل فشك فيه ، وشكه جعله يتجه نحو القمر حاسباً إياه ربه ، فلما أفل عاوده الشك واتجه إلى الشمس ، فلما رآها تأفل فَطِنَ إلى الحقيقة الكبرى ، وهى أن ربه لا بد أن يكون خالق هذا الكون كله ، وهنا استقر قلبه ووصل إلى اليقين فقال فى لفظ القرآن : « الأنعام ٦ / ٧٨ ـ ٧٩ » . ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا من الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

واقرأ معى هذه الآيات البينات من « سورة الحجر ـ ١٥ / ٩٧ ـ ٩٩ » ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * واعْبُدْ ربَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ .

والمراد : حتى يأتيهم اليقين بعد الشك والتكذيب .

بل إننا لنجد مصاديق منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك فى السيرة النبوية ذاتها ، فعمر بن الخطاب كان قبل إسلامه من أشد الناس إنكاراً لحقيقة الإسلام ، وهو عندما أراد الله له أن يصل إلى اليقين دفعته حميته الجاهلية إلى أن يذهب ليعصف بأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عندما بلغه نبأ دخولهما الإسلام ، وبالفعل ضرب أخته وشجَّها شجًّا قبيحاً ، فلما رأى دمها يسيل رق قلبه لها ، وبدأ شكه وحيرته من أمر هذا الإسلام ، عندما وجد أن ضربه إياها زادها ثباتاً على إيمانها ، والشك أول الطريق إلى اليقين ، فطلب أن يطلع على الآيات التى كانا يقرآنها عندما دخل عليهما ، فلم تعطه إياها إلا بعد أن يتطهر ، ثم تناول الصحيفة فإذا فيها الآيات الأولى من « سورة طه » وهنا انتهى به الشك إلى اليقين ، وأدرك بذهنه وقلبه أن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فأخذ طريقه إلى دار الأرقم ، ودق الباب على رسول الله وأصحابه ، ثم دخل فأسلم وآمن إيمان يقين .

ولم يمنعه إيمانه بعد ذلك من أن يناقش رسول الله فيما لم يقتنع به ؛ لأن يقين عمر كان يقيناً متجدداً ، وبفضل هذا اليقين المتجدد أصبح عمر قوة دافعة متجددة الابتكار داخل جماعة الإسلام ، وجداله مع رسول الله ﷺ فى حديث الحديبية يدل على أن إيمان عمر لم يكن إيمان تسليم مطلق دون تفكير ، فهو لا يسلم إلا بما يقتنع به ، ورسول الله أحب هذه الخصلة فى عمر ، فهو لم يغضب عليه حين جادله ، بل تركه حتى

يقتنع بنفسه ، فمثل عمر لا يسلم دون اقتناع ، وبهذا الطراز من الإيمان على أساس الإقناع أصبح عمر من أكابر بناة أمة الإسلام ، فهو إيمان رجل يفكر ، ولا يسلم إلا بما يهتدى إليه عقله ، ومع ذلك فلم يكن عمر عنيداً أو لجوجاً إذا تبين له خطأ رأيه ، وما أكثر المواقف التى أخذ فيها عمر برأى أبى بكر ، وما أكثر مواقف الجدل بينه وبين إخوانه من الصحابة أثناء خلافته ، وما أكثر ما كان عمر يترك رأيه ويأخذ برأى مجادليه إذا تبين له أن هذا هو الصواب .

وإنه ليستوقف نظرنا أن رسول الله ﷺ لم يطلق على من دخل الإسلام وأصبح عضواً فى أمة الإسلام اسم الأتباع بل الأصحاب أو الصحابة ، فهم صحابته لا أتباعه أو رعاياه ، ولزمهم هذا اللقب بعد أن قامت أمة الإسلام واشتد عودها فى المدينة ، والصحبة تعنى الألفة والمودة والصداقة والمساواة ، فلم يرض رسول الله ﷺ لهم إلا المساواة بنفسه الكريمة برغم أنه كان نبيهم وهاديهم ورائدهم ، ولو شاء أن يكون أميرهم أو سيدهم لكان ، ولما وجدوا فى أنفسهم غضاضة ، لأن إيمانهم كان إيمان يقين ، وكانت معاملة الرسول لأصحابه معاملة الصاحب ، فكان يأخذ منهم ويعطى ، وكان يستمع إليهم ويقبل الجيد الصالح من آرائهم ، وعلى طول حياته ﷺ كان الحوار ممتدًا بينه وبين أصحابه ، بل لقد أطلق رسول الله على أعضاء جماعته من أهل المدينة لقب الأنصار ، وهو لقب فيه إعزاز وتكريم ورفعة ؛ لأن نصيرك هو أخوك وصاحبك عند الشدة ، وبروح المساواة والأخوة ، وبروح الصحبة والمحبة والحوار والمشورة وتبادل الرأى ؛ بلغت أمة الإسلام فى المدينة ذروة قوتها على عهد الرسول ﷺ وصاحبيه من بعده ، وعندما فقدت أمة الإسلام روح الصحبة والأخوة ، وانقطع الحوار بين الخليفة عثمان بن عفان والأمة ، دخل العنف والقهر أمة الإسلام ، وتغيرت روحها ودَبَّ فى كيانها الوهن لأنها خرجت عن منهجها الذى رسمه لها الله سبحانه وتعالى وطبقه رسوله الكريم ، وبعد أن كانت أمة الإسلام أمة حرة تتكون من أصحاب مؤمنين أحرار أصبحت (رعية) يسوسها راع بعصاه هو الخليفة الذى أصبح ملكاً ، ويغفل فقهاؤنا عن هذه الحقيقة الكبرى ، ويغيب عنهم أن أمة الإسلام كانت أول أمرها وفى عصر قوتها « أمة من دون الناس » كما ورد فى نص « الصحيفة » ثم انحرفت بعد ذلك عن منهج الله ؛ فأصبحت أمة من الأمم يجرى عليها ما يجرى على غيرها من الأمم من ظلم وقهر وذل وهزيمة .

وهنا بالتحديد عندما تتحول أمة الإسلام من جماعة من الأخوة والأصحاب الأحرار المتساوين الذين يجمعهم الإيمان ، إلى رعية يحكمها ملك هو سيدها وصاحب حق الحياة والموت فى أهلها ، لم تعد أمة الإسلام بل أمة ورثت الإسلام فيما ورثت دون أن تحس به وتعرف قدره ، وهذه حقيقة غفل عنها رجال من طبقة ابن خلدون ؛ لأنهم لم يتعمقوا حقيقة الإسلام وما أراد الله أن يميز به أمته عن غيرها من الأمم ، لتكون بهذه الميزات فتحاً فى تاريخ البشر ، فغابت هذه الحكمة عنهم ونظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى أى أمة أخرى وأرَّخوا لها على أنها أمة لايميزها عن غيرها شىء ، والأسوأ من ذلك أن المسلمين أنفسهم لم يفطنوا إلى ما أراد الله من أمتهم ، فساروا فى سياسة أمور جماعتهم على نفس القواعد التى كانت تسير عليها الدول قبل الإسلام ، واعتبروا أمة الإسلام دولة أو مملكة أو سلطنة ، وما داموا قد نظروا إلى أمتهم هذه النظرة فقد خرجوا بها عن منهج الله أى عن المنهج الذى رسمه لها الله ، وأصبحوا دولة كغيرها من الدول التى ينشئها الناس من نصر وهزيمة وضعف وتفكك وفساد وعز وذل .

وانطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ (آل عمران : ٣ / ١٤٠) وقد قالها الله سبحانه فى سياق كلامه عن معركة أحد ، وهى معركة خرج فيها المسلمون عن نهج الله ، فأصبحوا ناساً كغيرهم يداول الله الأيام بينهم كما يداولها بين غيرهم من الناس .

أما فى معركة بدر فقد ثبتوا على منهج الله فنصرهم الله وهم قلة وأذلة ، أعزهم إيمانهم وبه نُصِروا على الكثرة ، وأتى فقهاء القرن الثالث الهجرى وما بعده فوجدوا ملكاً قائماً ودولة تقوم على القهر والقوة والسلطان ، فكان كل همهم أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً ووظيفة فى هذا الملك القائم ، فجعلوا أنفسهم سدنة النظام القائم وسلموا بما فيه واجتهدوا فى تحليله وإضفاء صبغة الدين عليه ، وأصبحوا بهذا جزءً من ذلك الملك القائم على الظلم لا على منهج الله سبحانه .

فى ذلك العالم الدنيوى الخالص لم يعد أفراد الأمة صحابة بل رعية ، وتلاشت قيمة الإنسان فانحدر من صاحب وأخ إلى فرد من أفراد رعية أو قُلْ : إلى رأس من رؤوس الغنم أو الماشية التى يرعاها الملك الغاشم الذى سمَّوْهُ إماماً أو خليفة أو سلطاناً أو ملكاً . وفى هذا البناء الشامخ تضاءل قدر الفكر وصاحب الفكر وتدهور حتى

أصبح مواطناً غير مرغوب فيه ؛ لأن المواطن المطلوب أو المرغوب فيه فى هذا البناء السياسى غير الإسلامى هو المواطن الذى يعتبر نفسه رأس غنم ويتصرف على أنه رأس غنم !!

وإذا كانت القيمة فى أمة الإسلام فى العصر النبوى والنصف الأول من العصر الراشدى للفرد ، كلها للإنسان المؤمن الذى يعتز بإيمانه وشخصيته ويجتهد فى الارتفاع بقدر نفسه بالبذل فى سبيل الجماعة والاجتهاد فى خدمتها ، أصبحت القيمة كلها فى عصور الخلفاء السلاطين ـ بداية من خلافة معاوية بن أبى سفيان ـ للإنسان الضعيف الطائع المستسلم الذى لا يفكر ولا يتحرك إلا بما شاء السلطان ، وفى قصره فى دمشق جلس معاوية بن أبى سفيان البدين المترهل على عرشه يحيط به جند اختارهم من أجلاف العرب يضع فى كف الواحد منهم مائة دينار ويشير بأصبعه فيهوى بسيفه على من أشار إليه ، والويل لمن يبكى على القتيل ، ومكة مهد الإسلام الأول أصبحت ضيعة من ضياع معاوية ، يتولاها له رجل من بيت أبى سفيان يسمى عتبة أو عنبة بن أبى سفيان ، وهو أخو معاوية ، ثم يخلفه عليها خالد بن العاص بن هشام المخزومى من قوم أبى جهل ، أما المدينة فلا يحكمها لمعاوية إلا مروان بن الحكم طريد رسول الله ، ثم يخلفه عليها رجال من بيت أبى سفيان أو بيت مروان ، وكذلك الأمر فى بقية نواحى الدولة .

وكان معاوية قد أمر المغيرة بن شعبة واليه على العراق ألا يخطب على المنبر مرة إلا سب علىّ بن أبى طالب ولعنه ، يقول الطبرى : فأقام المغيرة ـ وهو من الصحابة ـ عاملاً على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، وهو من أحسن شىء سيرة وأشده حباً للعافية ، غير أنه لا يدع ذم علىّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار والتزكية لأصحابه ، فكان حجر بن عدى إذا سمع ذلك قال : بل إياكم ذم الله ولعن ! ثم قام فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله** ﴾ « النساء : ١٣٥ » وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحقُّ بالفضل ، وأن من تُزَكُّون وتطرون أولى بالذم .. فيتغاضى عنه المغيرة ، وحجر بن عدى كان رجلاً حرًّا من كندة ، كبر عليه أن تستعمل منابر الإسلام فى معصية الله ، فقام يعلن رأيه . كان رجلاً ذا فكر وعقل وقلب وإحساس بحقيقة الإسلام ودعوته ، فيأبى

عليه إسلامه أن يدع سب ابن عم رسول الله وصهره وفارسه يجرى على منابر الإسلام فيقوم ويحتج عليه ، واجتمعت عليه جماعة من أصحابه من الأحرار صاروا يفعلون فعله ، ومعاوية مع ذلك لا يرعوى ولا يزال يأمر رجاله أن يسبوا على بن أبى طالب على المنابر ، ويضيق صدره بهذه الحفنة من الأحرار ، فيولى العراق بعد موت المغيرة بن شعبة رجلاً من خلصائه هو زياد ابن أبيه ، وزياد كان طاغية ظالماً دخيلاً ألحقه معاوية بأهله واستعمله لإذلال الناس وكانت قاعدته البصرة ، واستمر فى سب علىّ على المنابر ، ويظل حجر وأصحابه على احتجاجهم على هذا الظلم ، ويبلغ ذلك زياداً فيقبل إلى الكوفة ويصعد منبرها ويخطب ويطيل ، ويسب عليًّا وأصحابه فيكثر ، وطال الوقت حتى كاد وقت الصلاة يفوت ، فرمى حجر زياداً بكف من الحصى ونهض للصلاة ونهض معه الناس ، فنزل زياد وصلى بالناس .

وكتب زياد إلى معاوية فى أمر هذا الرجل الحر وأصحابه ، فكتب إليه معاوية : أن شده فى الحديد واحمله إلىّ ، فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه ، فقال : لا ولكن سمع وطاعة ! فشد فى الحديد وحُمل إلى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمته وبركاته ، فقال له معاوية : أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك ! أخرجوه فاضربوا عنقه ! فأخرج من عنده فقال حجر للذين يلون أمره : دعونى حتى أصلى ركعتين : فقالوا : صلِّ ! فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا أن تظنوا فىَّ غير الذى أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما فى هاتين خير ، ثم قال لمن حضره من أهله : لاتطلقوا عنى حديداً ، ولا تغسلوا عنى دماً .. فإنى ألاقى معاوية غداً على الجادة ، ثم قدم فضربت عنقه .

قال محمد : فلقيت عائشة معاوية فى مكة فقالت : أين كان حلمك عن حجر ! فقال لها : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد .. يريد أنه لم يجد حوله رجلاً رشيدًا يرده عن هذه الجريمة .

قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول : يومى منك ياحجر يوم طويل .

هى قضية فكر ورأى إذًا ، فحجر بن عدى لم يكن منافساً سياسيًّا بل هو لم يخلع

طاعة ولا فـر أو استخفى ، إنما هو رجل أَبَى أن يكون رأساً من الغنـم فقام يعلن رأيه وثبت عليـه حتى الموت ، إنه رجل قـال : أنـا أفكر . فقـال لـه الطاغيـة : إذن فأنت غير موجـود ! ولا يجوز لك أن توجد ؛ لأن الذى يـريد أن يعيش أو يوجـد معنا لا ينبغى أن يكون له رأى أو فكـر أو حتى إحساس إنسان ! وتأمل والله أمر معـاوية الذى يستحل دم رجل وأصحابه لمجرد أنه يحتج على شىء بالغ السخف هو لعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على المنابر ، ولكنه الطغيان والغـرور بالدنيا والعمى بالسلطان ، وهذا كله بعيد عن الإسـلام وأمة الإسلام ، فأين والله عصر أمة الصحـابة والأخوة واحترام قدر الإنسان وعقلـه وفكره ؟ لاعجب أن يقول رجل من حكماء العرب عنـدما بلغه مقتل حجر وأصحابه : والله ما زالت العرب تقتل بعد ذلك أبدًا !

والغريب أن الطبرى عندما يسوق هذا الخبر بروايات شتى وينتهى إلى موت حجر لا يقف عند موته لحظة ولا يرثيه بكلمة ، كأن حجراً كان سفاكاً أو خارجاً على القانون ، والطبرى كـان رجل فكر ورأى ، ولكنـه كان يكتب فى النصف الثـانى من القرن الثـالث الهجرى / التـاسع الميلادى ، وكـانت قاعـدة : أنت تفكر .. إذن فـأنت غير موجـود قد استقرت وتبلد عليها إحساس الناس .

والطبرى نفسه ضُـرِبَ ورُمِىَ بيته بـالحجارة على أيسر من مقـالة حجـر ، وكان الذين رموا بيتـه بالحجارة هم العامة الـذين درجوا على الظلم وكراهة الفكـر وأصحابه حتى قامـوا يقتلون أهل الفكـر بأيديهم ؛ لأن الـوجود مع الطغـاة أصبح مقصوراً على الطغاة ، أما من عداهم فقد ثبت فى أذهـانهم أنهم كالأنعام أو أضل سبيلاً ، واعترفوا هم بذلك حتى قاموا بأنفسهم يقتلون من قال منهم : إنه إنسان ذو فكر وكرامة !

وقصة رجل آخـر من رجال الفكـر نهض يعلن رأيه ويتمسك بـرأيه ويـذود عنه ، فأبت الـدولة إلا أن تطـارده وتحرمه حق الـوجـود ، وهو قطـرى بن الفجاءة الفـارس الخارجى التميمى الشاعر .

وقطرى كـان رجلاً نجـداً ذا فكرٍ ورأى ، وكـان يرى الخوارج الأزارقـة وهم أشد الخوارج على أهل السنة والجماعة .

ونحن نسميهم الخوارج ولكننا لا نعلم إن كـانوا هم الخوارج أم نحن . ثم نسأل : خوارج على من ؟ والجواب : على طـواغيت بنى أمية :السفيـانيين أولاً ثم المروانيين بعد

ذلك ، أولئك المسمون بالخوارج يرون أن الإمامة تكون فيمن يرضاه المسلمون ويجتمع رأيهم عليه ، ولا يعترفون بهذا الحديث الذى لا تثبت صحته : الأئمة من قريش ، وليس فى القرآن أو الحديث الشريف الصحيح ما يدل على أن رسول الله قال هذه المقالة ، وبماذا تفضل قريش غيرها من بنى آدم ؟

ولماذا تكون الإمامة فيها دون غيرها من الناس ؟ وأول ما سمعنا هذه المقالة يوم السقيفة إذ احتج بها فيما يقال أبو بكر فى مناقشته للأنصار ، وقد أنكر الخوارج ذلك بل أنكروا أن يكون للمسلمين إمام أشبه بالملك ينفرد بالحكم ويستبد هو وآله بالأمور ، وإذا نحن قرأنا السيرة قراءة تدبر وتعمق وقرأنا كتب الرسول ـ ﷺ ـ إلى رؤساء العرب فى الجزيرة وجدنا أنه كان يقر على رياسة الناس فى نواحى الجزيرة من يرضاه الناس فى كل ناحية وتحمد سيرته فيهم على أن يظل مسلماً ، صحيح الإسلام ، عضواً فى جماعته ، مشاركًا بنفسه ومن استطاع من قومه فى الجهاد مع أمة الإسلام .

أما أن يكون لأمة الإسلام كلها رئيس واحد مطلق السلطان فى كل ركن من أركان دار الإسلام يولى على كل ناحية من يشاء ويعزل من يشاء ويجبى أموال الناس جميعاً ويتصرف فيها تصرف كسرى فى أموال رعاياه ، فأمر ليس لدينا على ضرورة وجوده على رأس أمة الإسلام من النصوص دليل واحد ، وعمر رضى الله عنه كان يرى نفسه رمزاً لوحدة الأمة وكان يترك سادات العرب على نواحيهم ما أقاموا على الولاء للأمة وبعثوا إليه بصدقاتهم يستعين بها على الجهاد وندبوا الناس من أقوامهم للاشتراك فى جيوش الإسلام .

إنما كان سلطان عمر يتمثل فى ميادين الجهاد والأراضى المفتوحة وثغور الإسلام أما داخل دار الإسلام فعمر ـ رضى الله عنه ـ كان الأب الشفيق والرائد الصالح ، وكان لا يطلب من الناس إلا طاعة الله ورسوله ، أما طاعة عمر فى ذاته فلم يطلبها من أحد ، وهذا هو الخليفة حقاً .

أما الإمام الواحد المتفرد بالأمر فى كل دار الإسلام ، فأمر لم يظهر إلا مع قيام دولة معاوية بن أبى سفيان ، وتحول أمة الإسلام إلى كسروية ساسانية أو قيصرية رومية ، وأصبح المتسمى بالخليفة فى دمشق يصر على أن يذل الناس ويستعبدهم ولو كانوا على الطاعة لله ورسوله ، فلم يكونوا يرضون منك بأن تكون مسلماً صادقاً وعضواً صالحاً

فى الجماعة فحسب ، بل لا بد أن تكون إلى جانب ذلك رعية لهم ولأهل بيتهم ، ذليلاً تعتبر نفسك رأس غنم ! وهل ننسى حديث عبد العزيز بن موسى بن نصير ؟ لقد كان عبد العزيز والياً صالحاً ، وفاتحًا نجدًا ، خلفه أبوه موسى بن نصير على الأندلس ، فتم فتح ما بقى منها ، وأصبح بذلك ثالث فاتحى الأندلس بعد طارق وموسى ، فيأبى السخيف سليمان بن عبد الملك إلا أن يدس عليه من يقتله ؛ لأنه لم يكن ذليلاً ولا رأس غنم ، ويلقى عبد العزيز بن موسى مصرعه بسيف الغدر فى غبش الصبح وهو ذاهب لصلاة الفجر ، وتغرق الأندلس فى الفتنة والدماء ويبلغ الخبر أباه موسى فيبكيه ويقول رحمه الله ما عرفته إلا مصلياً قائماً ، وصدق موسى فى دعائه لابنه فلا يطلب من المؤمن إلا أن يكون مصلياً قائماً بدين الله ، أما أن يكون عبداً لسليمان بن عبد الملك فلا ، كل ذلك بأمر رجل بغيض أعجف قبيح الوجه هزيل البدن ما وقعت عين جارية عليه إلا أشاحت بوجهها عنه ونظرت إلى غيره فتمتلىء نفسه حقداً على غيره من الرجال وغيرةً منهم ، وهذا سبب حقده على قتيبة بن مسلم الباهلى العظيم ، وكان فارساً ذا بأس وشكل وهيئة .

***

إثنَـان لاَ يُجتمِعَـان
رَجُـل الفِكْـرِ .. والطَّـاغِيةُ

حقيقة أدركها الجاهليون قبل الإسلام : أن الشاعـر - وهو المفكر الأديب الفنان - لسان قومه وضمير قبيلته ، وإذا نبغ فى القبيلة شاعراحتفلوا به وفاخروا به غيرهم ، فقد وجدوا مـن يعبر عن ضميرهم ، وقالـوا : أحسن الشعر أصـدقه ! وعنـدما قامـت دولة الطغاة بعد الإسلام ، أصبح الهم الأول للطاغيـة ورجاله قتل ضمير الأمة وقطع لسانها المعبر ؛ لأن الطاغيـة والفكر الحر لا يجتمعان أبداً ، بـدأت مذبحة الفكـر والمفكرين على طول تاريخنا إلى حين قريب ، وأصبحت القاعدة أحسن الشعر أكذبه ! .

نكمل خبر قطـرى بن الفجاءة لندخـل بعد ذلك فى مـوضوع هذا الجزء الثـانى من دراستنا .

نقـول : أن قطرى بن الفجـاءة كان من رءوس المسمين بـالخوارج الذين طـاردهم الحجاج بن يـوسف والمهلب بن أبى صفرة وأنفقـا فى قتالهم أضعـاف ما أنفقـا فى قتال الكفار ، وكان أمر الخوارج الأزارقة قد وهن وضعف بطول الحرب وهلاك رجالهم واحدًا بعد واحد ، فاكتفوا من الدنيا بقطعة أرض صحـراء قاحلة تمتد من أصفهان إلى كرمان ، وهى جزء من دشتى لـوط التى كان العـرب يسمونها بالمفـازة لوعورتها وقلـة خيرها ، وكان الخوارج قد ولوا على أنفسهم قطرى بن الفجاءة بعد أن قتل زعيمهم الزبير بن أبى الماحوز سنة ٦٨ هجرية ، فظل الرجل يقاتل عن قطعة الصحراء التى بقيت له حتى سنة ٧٧ هجريـة ، والحجاج لا يكف عن إرسال الجيـوش إليه ، فخرج فى قلة من الـرجال إلى جبال طبرستان يحتمى فيها ، وطبرستان هى الأقليم الجبلى جنوبى بحر قزوين ، وفيها اليوم طهـران وهو الاسم الحديـث لبلدة الـرى القديمـة ، وإختلـف أمر الخوارج على قطرى ، فانحاز معظمهم إلى زعيم منهم يسمى عبـد ربه الكبير ، وفى النهاية بقى قطرى وحده ليس معه إلا سيفه وحصانه .

فهل تركـوه ؟ لا والله ! ومـادام يعتز برأيـه وفكره فـلا يمكن أن يكون لـه وجود ، والقاعدة كانت : أنت تفكر إذن فلا يمكن أن يكون لك وجود ، وأرسل إليه الحجاج جيشاً عظيمًا من أهل الشام يقوده سفيان بن الأبرد .

ووحده سار الشاعر البطل ، أوغل فى الجبال والجنود فى أثره حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، ونفق فرسه فنزل يمشى على رجليه وزلت به قدمه وهو فى مخارم الجبل فتدهور حتى استقر أسفل الوادى ونهض يمشى وهو لا يكاد يستقيم ، وتبعه رجل من الفرس يطلب رأسه ليبيعه للحجاج بمال ! ولحقه الفارسى فطلب منه قطرى شربة ماء فأبى الخسيس أن يعطيه إياها إلا مقابل سيفه فأبى قطرى ، ولحق به الجيش فقتلوه فمات حاملاً سيفه معتزاً بكرامته ، وادعى شرف قتله مائة « أبطال » أورد الطبرى أسماءهم [٦ / ٣١٠] وحملوا رأس رجل الفكر الحر إلى الحجاج ، ثم إلى عبد الملك بن مروان فى دمشق ، فتأمل والله دولة طويلة عريضة لا تحتمل بقاء رجل واحد يفكر ؛ ولسان حالها يقول : تزعم أنك تفكر يا ملعون ، إذن فأنت لا يمكن أن تكون موجوداً !

ومن طبائع حكومة الظلم والاستبداد والطغيان أنها إذا بدأت لا تقف عند حد ، فالطاغية إذا أنت سلمت أمرك له لم يرض منك بالطاعة ، بل يصر على أن تكون طاعة وإذلالاً ، وقد رأينا الفارسى الأعجمى الذى تتبع قطرى بن الفجاءة ليقتله ويفوز من الطاغية بجائزة ، يصر على أن يذل قطريًا وهو على أبواب الآخرة ، فهذا رجل مطارد وحيد ، مهيض الجانب ، كسير الساق ، يطلب شربة ماء قبل أن يموت ، فيأبى الأعجمى إلا أن يذله ، فيطلب إليه تسليم سيفه ، والسيف عند الفارس رمز شرفه وعزة نفسه ، وقطرى كان قد وصل إلى حد من الإعياء لا يستطيع معه قتالاً بالسليف ، ولكنه أصر على أن يموت وسيفه معه ، ومات وسيفه معه ، واستحق بذلك خلود الاسم ، فها نحن أولاء اليوم نروى لك خبره بعد أربعة عشر قرنًا ، فنترحم عليه ، وتنفر نفسك من معاوية وآله ورجاله ، وماذا حدث لمعاوية وأولاده ؟ غلبوا على أمرهم ، وانتقل الملك منهم إلى مروان ابن الحكم وبنيه ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وماذا حدث لبنى مروان ؟ ! أكلتهم سيوف العباسيين بقسوة فاقت قسوة معاوية ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وفوق الستين رجلاً منهم قتلهم واحد من العباسيين هو داود بن على فى مذبحة على نهير أبى فطرس ، ولم يقنع بذلك .. بل بسط على الجثث أنطاعاً أى جلوداً ، وجلس هو وأصحابه يأكلون ! فهل هؤلاء مسلمون أو حتى بشر ؟ لا والله ، ولكن بداية الظلم كانت عند معاوية ومروان بن

الحكم وعبد الملك بن مروان ، وهذه عاقبته ، وأذكر هنا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام ٦ آية ١٢٩ ﴿ وَكَذَلِكَ نولى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وآه .. لو قرأ المسلمون ما بين أيديهم من القرآن وعملوا بما فيه !

وأنا أستشهد بالقرآن فى كلامى المرة بعد المرة وأنا أعرف أن من بين قرائى غير مسلمين ، فأما من كان من القراء مسلماً فهو يؤمن بما يسمع منه لفظاً ومعنى ، وأما من لم يكن فلا بأس عليه ، وليسمع القرآن على أنه كتاب إيمان وحضارة وفكر ، فإن كلام الله دين وعقيدة وخلق وحضارة ، ففيه لكل من يقرؤه ما يكفيه أياً كانت عقيدته ودينه ، فمن لم يجمعنا وإياه الدين جمعتنا وإياه الحضارة ، وما نحن بواعظين ، فللوعظ أهله ورجاله ، وإنما نحن مواطنون نخاطب مواطنين .

وتجىء أيام بنى العباس وقد استقرت قواعد الظلم وخرج حكام الإسلام عن منهج الله خروجاً يهون معه خروج أبى جهل ولا والله ما فعل أبو جهل بالمسلمين جزءاً مما فعله أبو عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور وأعمامهما ورجالهما أجمعون ، ويكفيك أن أبا عبد الله أول خلفاء بنى العباس دخل التاريخ بصفة السفاح ، حتى أصبح هذا اللقب جزءاً من اسمه ، فكيف بالله ينال عفو الله ورضاه رجل لا يذكر إلا بلقب السفاح ؟ !

وأما أبو جعفر المنصور فقد كان دم الإنسان أهون عليه من بعوضة ، وهو مع ما له من مكانة فى تاريخنا لا يمكن أن يعد فى المسلمين أو المؤمنين أو حتى البشر ؛ لكثرة من قتل من الناس ، أما من قتل من أهل السياسة فحسابه فى أمرهم على الله ، ورجال السياسة جميعاً طلاب سيادة وسلطان ، وما داموا قد دخلوا ميدان الصراع على السيادة فعليهم أن يتحملوا النتائج ، وكلهم فى تلك العصور ظلمة لا يحفلون لأمر الأمة ولا ينظرون إلى صالحها ، إنما هم الواحد منهم نفسه وسلطانه ، وهنا يخرجون عن منهج الله ويصبحون فى جملة الظالمين الذين يولى الله بعضهم بعضاً .

وأما الذين يعنينا أمرهم فى هذا البحث فهم أهل الفكر وما أصابهم على أيدى الظالمين ، وأبدأ بذكر عبد الحميد الكاتب ، وهو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامرى ، من عامر بن لؤى ، وكان كاتباً ، أى يعمل فى الشئون الإدارية لمروان بن

محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وعقاباً له على ذلك يقتله أبو العباس السفاح دون ذنب أو جريرة .

ولماذا قتله ؟ لأنه كان رجلاً صاحب علم واسع وثقافة مستفيضة وفكر وقاد ، ولكنه اضطر إلى أن يدخل فى خدمة الخلفاء كما يدخل الواحد منا فى خدمة الدولة ليكسب عيشه ، لأن الأدب وحده على طول تاريخنا لا يعين صاحب الفكر على مطالب العيش ، ولكن الرجل كان صاحى الذهن حاضر الفكر بعيد الهمة ، وربما كان أول من وصل من البشر بالنثر العربى إلى مراتب الفنون ومن أشهر ما يؤثر عنه وصيته إلى الكتاب أى إلى الناثرين الذين كانوا يعملون فى خدمة الدول ، وفيها عبارات عظيمة تنفع الأديب الكاتب فى كل عصر ومكان .

قال بعد أن نصح الكتاب بالدراسة الواسعة والتمكن من صنوف العلم والأدب والتفقه فى أمور الدين بادئين بكتاب الله سبحانه وتعالى منتهين بالحساب وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها [يريد علم التاريخ] : « فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإن قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع ، سنيها ودنيها ، ومساوىء الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزِّهوا صناعتكم واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الدناءة والجهالة ، وإياكم والكبر والعظمة فإنها عداوة مجتلبة ، بغير إحنة [أى أن غرور الكاتب بما عنده يثير كراهة الناس له وعداوتهم إياه دون أن يكون هناك سبب للخصومة] وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصلوا عليها فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم ، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ، وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوته فزوروه وعظموه وشاوروه .

واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحدب وأحوط منه على أخيه وولده ، فإن عرضت فى العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال » .

فهل رجل مثل هذا يستحق القتل ؟

نعم يستحق ! .. فى نظر الظالمين ، فما عرفنا لعبد الحميد الكاتب ذنباً إلا علو الهمة والبعد عن الدنية واستقلال الذهن والرأى ، وهذه هى الأخبار بين أيدينا ، فما نجد فيها أن الرجل سعى على بنى العباس أو دبر عليهم أو عاب فيهم ، وإنما هو رجل ذو فكر وبراعة فى فن الكتابة ، وعزة نفس وهمة ، وبنو العباس فى أول أمرهم لم يكن لهم عدو إلا مثل هذا الرجل ؛ لأن بنى أمية إذا كانوا قد وصلوا إلى الخلافة بالخبث والحيلة والجرأة على الحق ، فإن بنى العباس كانوا أسوأ فى هذه المجالات كلها وأبعد ، وجدُّهم العباس دخل الإسلام فى نفس الوقت الذى دخل فيه أبو سفيان ، بل إن أبا سفيان لم يحارب الله ورسوله فى بدر ، وحاربه العباس ، وأحفاده أبناء على بن عبد الله بن العباس ضللوا الناس وموهوا عليهم واستظهروا على أمرهم بكل جبار ، واستغلوا حب الناس لآل البيت من أبناء فاطمة وعلى ليفوزوا بالخلافة بالغش والتدليس ، ونحن ننكر الوراثة فى رياسة الأمة جملة ، فأمة الإسلام لا تورث ، وهى فى حقيقتها أمة حرة من المؤمنين لا يلى أمرها إلا من تختاره لرياستها عن رضا منها وطواعية ويكون لها الحق فى خلعه إذا أساء ، فكيف وبنو العباس يقولون : إن الخلافة ميراث لهم عن النبى ـ ﷺ ـ هذه الأمة كلها بأرضها وناسها ميراث لهم كأنها بيت أو عقار ، وهذه حقيقة يعرفها أهل الفكر ولا يعرفها من الناس من غسل الطغاة ورجالهم أذهانهم ، وألحوا فى الغسل حتى لم تعد لهم أذهان ، ومن هنا فلا حياة لأهل الفكر معهم ، وهل تصدق مثلاً أن أبا جعفر المنصور عندما استتب له الأمر ذهب ليزور دمشق قاعدة الأمويين ، فلقيه أعيانها ، فجعل يلومهم على تأييد بنى أمية على بنى هاشم ، فأقسموا له أنهم ما كانوا يعرفون أن لرسول الله قرابة إلا فى بنى أمية ، وهذا كله من التضليل وغسل الدماغ ، فكيف والله يرضى بنو العباس أن يكون هناك وجود معهم لرجل مثل عبد الحميد الكاتب يعرف الإنسان والتاريخ ؟

ثم إن عبد الحميد كان يعرف خراج الدولة وأموالها ومصادرها ومواردها ، وبنو العباس لا يحبون من يعرف ذلك دونهم ؛ لأنهم لا يطمئنون على سلطانهم إلا فى أمة جاهلة ، ولهذا قرروا قتله دون ذنب كان له إلا العلم والفكر وعلو الهمة ، ولقد طلب إليه مروان بن محمد عندما استبان له أن أوان بيته قد زال ، أن يدخل فى خدمة أبى عبد الله السفاح ، ويسعى فى كسب ثقته ، ثم يتوسط لمروان بن محمد ! فأبى عبد الحميد ذلك ،

وقال : وكيف لى بأن يعلم الناس أن هذا عـن رأيك ؟ وكلهم يقولون : إنى غدرت وصرت إلى عدوك ! وهذا الـرجل العاقل الأريب الصادق لا حياة له مع الطغـاة ، وكان كتبة بنى العباس والقائمون على شئون المال فى دولتهم الجديدة أشد من الخلفاء رغبة فى قتل عبد الحميد ؛ لأنه كفيل بتعريف الخليفة حقائق أموال الدولة ، وهم يريدون أن يظل الأمر فى أيديهم سرًا مقفـلاً عليهم لكى ينهبوا كما يـريدون ، ولهذا فما أن قتل مـروان بن محمد حتى حمل عبد الحميد إلى أبى العبـاس ، فسلمه إلى عبد الجبار بن عبـد الرحمن ، فكان يحمى طستاً ويضعه على رأسه ، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله ..

وهل يخطر ببالك أن أبا العباس السفاح أسف لحظة على موت هذا الرجل الفريد فى بابه ؟ لا واللـه ! ولا أهمه الأمر لحظة ، ومن الذى مـات ؟ رجل من أهل الفكر ! فى ستين ألف داهيـة ! ولقد حكـوا أن رجـلاً من صغار أهل العلـم كان يخدم إبـراهيم بن أحمد الأغلبى ويكتب لـه فبينما هو داخل مـرة لقى عبـداً خصياً ممن يخدمـون فى الحريم ، فسارع العبـد وحمل الدواة والورق للفقيـه ، فلما دخلا على إبـراهيم بن أحمد على هذه الصـورة سب العبد على أن سمحت لـه نفسـه أن يحمل الدواة والـورق للفقيه ، وأمـر الفقيـه الشـاب بأن يحمل نعل الخادم ويضعه على رأسـه ، وقـال لـه : أنت أهل ثقتى والمؤتمن على حريمى تحمل الدواة لصعلوك من الكتاب يجلس إلى قمطر على باب القصر يكتب لهذا بدرهم ولهذه بدرهمين ؟ !

***

ورجل آخر من أهل الفكر كان يكتب لإبراهيـم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، وهو الرأس الماكر الكبير الذى دبـر مؤامرة تحويل الخلافة إلى بيت العباس كلها خفية عن الناس وغشاً للأمة ، وكان يكتب له رجل من أصل فارسى يسمى بكر بن ماهان ، وكان بكر هذا قـد زوج ابنته من شاب من مساعديه يسمى حفص بن سليمان الملقب بأبى سلمـة الخلال ، وكان ذكيـاً أريباً مـوهوبـاً ، فتقدم الصفـوف ، ولما أحس إبراهيم الإمـام قرب وفاته جعل أبـا سلمة رأس الدعاة ، أى أنه أصبـح كما نقول اليوم

رئيس المخابرات والدعـاية ، فهو يعرف الدعاة وسر الدعـوة ، ويعرف الأموال التى كان دعاة بنى العبـاس يجمعونها باسم الصـدقات لآل البيت ، وكـان الناس لضيقهم ببنى أمية يميلون إلى دعوة أهل البيت ويؤدون للدعاة أموالاً تسمى الصدقات ، فاجتمعت من ذلك ملايين مـن الدنانير لا يعلم بـأمرها إلا مثل أبـى سلمة ، ولكن إبراهيـم الإمام قبل موته كان قد اتفق مع أبى مسلم الخراسانى على أن تكون الدعوة لبنى هاشم ، فإذا كان النصر أخذ البيعة ممن عنده لأخيه أبى عبد الله السفاح ثم لأخيه الثانى أبى جعفر ، ولم يخبر بذلك أبا سلمة الذى كان شـديد الإخلاص لآل البيت العلويين ويحسب أن الدعوة لهم ، ولهذا فقد كان لقبه الـرسمى وزير آل محمد .. ولما انهزم ابن هبيرة آخر المدافعين عن دولـة بنى أمية فى واسط ، ودخل القـائدان العباسيـان حميد والحسن ابنـا قحطبة الكوفة ، سلما الأمر لأبى سلمة وزير آل محمد ، وتصرف الرجل على أنه وزير آل محمد فعلاً دون أن يعلم بما دبره إبراهيم الإمام مع أبـى مسلم من وراء ظهره ، فبادر الوزير التعيس وكتب يعرض الخلافة على ثلاثة مـن آل على منهم جعفر الصادق ، وكان جعفر رجلاً ذكيـاً يحس أن بنى العباس لا يمكن أن يخدموا آل على ، فأحرق كتـاب أبى سلمة أمام الناس ، ليرى الملأ أنه زاهد فى الخلافة غير راغب فيها حتى لو عرضت عليه ، فكان فى عمله هذا حتف أبى سلمة ! ذلك أن أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور لم يلبثا أن أهلا على الكوفـة مع الجند يطلبان الخلافة ، فظن أبو سلمـة أنهما متهوران متسرعان ، فاستوقفهما ومن معهما من آل العباس فى موضـع يسمى « قصر مقاتل » قرب الكوفة ، وأقام ينتظـر رد جعفر الصـادق ، ثم سمح لهم بدخول الكـوفة ولكنـه أخفاهم فى دار بعيدة نحو شهرين خوفاً عليهم فيما ظن ..

ودخلـت جيوش العباسـيين الكوفـــة ، فســـأل قائدها عن ابن الحارثية وهـو أبو العباس ، فلما عرف مكانه دخل عليه وسلم عليه بالخلافة وبايعه وقبل يده ورجله ! ومنذ متى عـرف الإسلام تقبيل اليـد والرجل ؟ والله مـا سمعنا أن سيـد الخلق محمداً رسول الله سمح لرجل أن يقبل يده فضلاً عن رجله ! لا ولا عرفها أبو بكر أو عمر ، لأن أمة الإسلام كانت أمة صحابة رسول الله ..

وبلغ خبر دخول أبى عبد الله السفاح أبـا سلمة فأسقط فى يده ، فأسرع مع رجاله إلى أبى العباس ليبايعه ، واستفتحوا الباب وقالوا : وزير آل محمد ! فأسمعوه بعض ما

يكره ، ثم فتحوا له بعد حين ، فدخل فاستقبل القبلة فسجد وسلم وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار فقال أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم وسابقتك فى دولتنا مشكورة ، وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل ، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين ..

يقول محمد بن عبدوس الجهشيارى فى كتاب « الوزراء والكتاب » : إن أبا العباس هَمَّ بأبى سلمة [رغم الصفح والأمان] فقال له داود بن على [عمه وشبيهه فى الطغيان وقد مات قتيلاً على يديه] لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ، ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان من أمر أبى سلمة [يريد بما كان من أمر أبى سلمة فى الكتابة إلى من كتب إليه من ولد على] وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار ابن أنس لقتل أبى سلمة ، فلما وافاه ، أمر أبو العباس قبل قتله بثلاثة أيام ـ منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة .

ثم دعاه قبل مقتله بيوم ، وكان يسمر عنده ، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله ، وقد كمن له المرار بن أنس وأسيد بن عبد الله فقتلاه ، وأغلقت أبواب المدينة فقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج ! فقال : لليدين والفم ! [عبارة معناها عندنا : فى ستين داهية] وقتل فى رجب ١٣٢ هـ ، وهذا الغشاش الغادر الكاذب هو الذى أصبح خليفة المصطفى ﷺ والأمين على أمة الإسلام ! وهو الذى قال فى خطبته الأولى على منبر الكوفة يخاطب الأمة : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » .

أجل ! وفى رأى هذا الطاغية هى سيرة رسول الله ﷺ ! وهذا هو السر فى موت أبى سلمة ، فإن أبا سلمة فعلاً قد انخدع وأخطأ ، ولكن هذا خطأ لم يتأت منه شر ، ولكن جريمة أبى سلمة الكبرى هى أنه كان رجلاً ذا فكر وضمير ، وما دامت الدعوة للرضا من أهل البيت فإن أبناء على وفاطمة هم من ترضاهم الأمة من آل البيت ، وليسوا قطعاً إبراهيم الإمام وأصحابه فى تدبيرهم مع أبى مسلم .

دعوة الحق لا بد أن تموت ، وصوت الحق لا بد أن يخمد ، وأبو سلمة لا بد أن يموت .

ثم إن أبا سلمة كان يعرف كل الحقائق : أسماء الدعاة وشبكات الدعوة والأموال ومقاديرها ، ما أنفق منها وما بقى ، ومن أخذ منها وكم أخذ ، وهذا العلم كله من الممكن أن يتسرب إلى الأمة ، والأمة لا ينبغى أن تعلم شيئاً لا عن حقائق الأمور فى دولتها ولا عن أموالها ، وإذن فليمت أبو سلمة ؛ ليموت معه علمه كله ، والموت أصبح المصير المحتوم لكل من يعلم ، لكل من يفكر ، لكل من يعرف الحق ، والحياة حق لرؤوس الغنم دون غيرها ، وهى اليوم ميراث يورث كالمتاع والماشية ، ألم يقل عبد الله بن على عم أبى العباس مكملاً خطاب ابن أخيه على منبر الكوفة : إن الله أحيا شرفنا وعزنا ورد علينا حقنا وإرثنا ..

لهذا السبب نفسه كان لا بد أن يموت عبد الله بن المقفع ، وكان عبد الله بن المقفع أديباً ومفكراً عظيماً ، ورسالته المسماة برسالة الصحابة أى صحابة الخليفة ونصحائه وأهل دولته ، تدل على فكر سليم وعقل صاف وقريحة وقَّادة وعلم غزير ، وما بقى لنا من كلامه يدل على عقل وفهم وعلم واسع ، وكان قد طال به العهد بالكتابة للأمراء وولاية الأعمال ، فاتسع علمه وزادت خبرته وعظمت مكانته حتى تصاغرت بالنسبة إليه مقادير أجلاف الكتاب من أمثال سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فكرهوه وأبغضوه وسَعَوْا فى هلاكه ، وكان أبو جعفر المنصور أمين الله على أمته ـ كما زعم ـ يتحين فرصة للإيقاع به ، وكان ابن المقفع يعمل كاتباً لعيسى بن على عم المنصور ، وكان المنصور قد أوقع بمعظم أعمامه ، وهم جبابرة حسبوا أنهم شركاء ابن أخيهم فى ملكه ، فكان فى هذا موتهم ، وبقى منهم اثنان : عبد الله بن على وعيسى بن على ، وكانا أقلهم شراً وأضعفهم حيلة ، فطلب عبد الله إلى ابن المقفع كاتب أخيه عيسى أن يكتب لأبى جعفر ليؤمنه ، فوافق أبو جعفر ، وتولى عبد الله بن المقفع كتابة نص الأمان ، فكتبه واحتاط فى كتابته حتى لا يدع لأبى جعفر حيلة فى الغدر بعبد الله بن على ، ووردت فى نص الأمان عبارات أحس منها أبو جعفر مهانة له ، وسأل بعد أن قرأه : من كتب له هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن على ، فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟

ومعنى ذلك أن أمين الله فى خلقه أهدر دم الرجل عقاباً له على علمه وذكائه وفكره ، وما أن حصل خدم المنصور على الإذن فى قتله حتى تسارعوا وكل منهم يرجو أن يكون

هو السفاك القاتل الذى يعصى الله ويرتكب الكبيرة الشنيعة إرضاء لمخلوق غدار ، وفاز بغضب الله فى هذا الموطن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فدبر حيلة للقبض على ابن المقفع وقتله إذا زاره فى عمل ، وقد كان ، ووقع ابن المقفع فى يد غريمه فقيده بالحديد وألقى به فى غرفة مظلمة ، وزعم لخادم ابن المقفع أن مولاه خرج ، فلما انفض مجلس سفيان قام فدخل على ابن المقفع وأبلغه فى لهجة المتشفى أنه حكم عليه بالموت ، وكيف قتله ؟ أحمى التنور وهو الفرن وألقى به فيه فيما يقال قطعة قطعة ، وهذه والله طريقة فى قتل الناس لم نسمع بها فى أسود أيام الجهالة قبل الإسلام وعند أدخل الشعوب فى الجهالة والقسوة ، ولكن المسلمين عرفوها بعد الإسلام والنور والهدى ، وخصوا بها المجرم الأكبر وهو رجل الفكر والعلم .

وضاع أمر الرجل ! تصنَّع أبو جعفر التهمم بأمره ، ثم تراخى ، وضاع أمر الأديب بل نهب ماله ؛ لأن ذلك كله كان عن أمر الخليفة .

ومحمد بن عبدوس الجهشيارى وأبو جعفر الطبرى يرويان خبر مقتل الأديب المفكر دون لفظ إنكار أو كلمة عطف ، كأن الذى مات أهون من دجاجة ذبحت لطعام ، بل تبرع رجل من أهل الفكر من دعاة بنى العباس ، فزعم أن ابن المقفع قتل ؛ لأنه كان زنديقًا يعبد النار فى السر ويظهر الإسلام .

لقد انتهى عصر رجل الفكر الحر ، الذى يحسب أنه ضمير الأمة ، وبدأ عصر الأديب الذليل الذى يعتبر نفسه عبد السلطان ولا يستحى من المذلة من أمثال أبى دلامة الشاعر الذى قال متسولاً بين يدى المنصور :

هَبَّتْ تعاتبنى من بعد رقدتها ... أمُّ الدلامة لما هاجمها الجزعُ

قالت : تبغ لنا نخلاً ومزدرعاً ... كما لجيراننا نخل ومزدرعُ

خادع خليفتنا عنها بمسالة ... إن الخليفة للسؤال ينخدعُ

فتفضل الخليفة عليه بما طلب من أرض يملكها ويزرعها فقال أبو دلامة لأبى جعفر : أتأذن لى فى تقبيل يدك ، فهمَّ يفعل فمنعه : لا تواضعاً بل تظاهراً بالتواضع ، فيقول أبو دلامة قولاً هو الغاية فى الذلة والصغار والخوف : ما منعنى [الخليفة] شيئاً هو أقل على عيالى ضرراً من هذا !

بقيام دولة الخليفة السلطان الحاكم بأمره انتهت أيام صاحب الفكر ، وصدق قول من قال : اثنان لا يجتمعان : طاغية وصاحب فكر حر ، وثلاثة يجتمعون دائماً : مستبد طاغية غاشـم ، وامرأة عاهر ، وإنسان داعر ! وأناتـول فرانس يحكى فى رواية « الآلهة عطشى » : إن الرسام الصغير إيفارست جاملان نظر إلى لوحة « مدام ريكامبيه » لرسام عصر الثورة الفرنسية الأكبر « جاك لوى دافيـد » وقال لصاحب له : ترى هل أستطيع أن أرسم لوحة مثل هذه ؟ فقال له صاحب صانع اللعب : ولا دافيد نفسه يستطيع الآن ! فأمثال هذه الغانية مضت مع أيام عشيقها الملك ، ولم يعد مفروضاً عليك أن تقف بباب القصر وتطلب العيش برسم العاهـرات .. الآن نحن فى عصر الثورة والحرية ، فعليك أن ترسمنا نحن صعاليك الشوارع ، ودافيد نفسه أخـرج للناس اليوم لوحة موت سقراط التى رسمها قبل الثورة ، وكان يخاف منها فأصبح يفخر بها .. !

أما صاحب الفكر الحر الذى يقول ما يخطـر بباله فقد كتب عليه أن يعيش مطارداً ومشرداً ، يأكل يوماً ويجوع أيـاماً ، يحب الناس فنه ويخشون فكره ولسـانه ، وأمامك حياة بشار بن برد ، وهو عبقرية شعرية نادرة ، عاش بعض عمره أيام بنى أمية وبقيته أيام بنى العباس ، وكـان رجلاً خارق الذكاء واسع العلم ، فطره اللـه على قول الشعر ، فكان يتنفسه تنفساً ، وبلغ من ذكائه أنك تقـرأ شعره فلا تفطن إلى أن قائله محروم من نعمة البصر ، فهو يرى ببصيرته ما لا يراه أهل النظر ، ورجل كهذا يكون من طبعه عدم الاحتياط ، ولا يزال ذهنه الوقاد وشاعريتـه المرسلة يرميان به فى المعاطب ، وهو لهذا فى عصر الطغاة مهدر الـدم أبداً ، أضف إلى ذلك أن الرجل لم يرزقـه الله من حسن الشكل شيئاً فكـان قبيح الصورة تقتحمـه العيون ولا تمتلىء منـه نفس ، وكان هـو متبذلاً فى مأكله وملبسه ، فلم يكن على هيئة تدعو إلى تـوقيره ، فكثرت الزراية به ، وهان أمره على الناس فأكثروا فيه ، وأحس هو ذلك منهم فأطلق لسانه فيمن ناله منهم أذى ، وأقذع فى هجوه فكثر أعداؤه ، وكـان شعره الجميل يزيد بلواه ؛ لأن أبياته المحكمـة البديعة كانت تطير فى الناس طيراناً ، فلما كثر أعداؤه هان عليه أمر الناس والمجتمع ، فلم يعد يحتشم فى قول أو فعل ، واشتهر أمره بالمجون والتبذل وقلة التحفظ ، ولكننا لا نستطيع الحكم السليم على شاعريته ، فكل ما لدينا من شعره لا يزيد على ثلاثمائة وعشرين بيتاً هى كل ما ورد لنا عنـه فى كتاب الأغانى ، وما جمعه الخالـديان وهما أبو بكر وأبو عمـر خازِنا كتب سيف الدولـة الحمدانى ، مع أن بشاراً نفسه يقول إنـه صنع نحو اثنى عشر ألف

قصيدة ، والغالب أن الناس تحاموا حمل شعره وحفظه لما كان فيه من الفحش والتبذل والوقوع فى أعراض الناس فضاع معظمه .

ولكن هذا كله لا يبيح قتلـه ؛ لأن هذا الرجل كان لاتساع شاعـريته مصور عصره بكل ما فيه ، حتى مـا وصف بالفاحش من شعره كـان صورة لما شاع فى عصره [٩٦ ـ ١٦٨ هـ / ٧١٤ ـ ٧٨٤ م] من تبذل ، وقـد هبط بشـار بـالشعر من دنيـا النجـوم والكواكب والـلآلىء إلى أرض الناس ، وقال الشعـر فى كل شىء وأراد له سـوء حظه أن يكتسب عداوة يعقوب بن داود وزير الخليفة المهدى ، ثالث خلفاء بنى عباس ، فقال فيه أبيـاتاً أحفظ بها الـوزيـر والخليفة معـاً ، فقـال يخاطب الـذاهبين من بنى أمية أعـداء العباسيين :

بنـو أميـة هبـوا ! طـال نـومكم ... إن الخليفـة يعقـوب بن داوود

ضـاعت خلافتكم يـاقـوم فالتمسـوا ... خليفـة اللـه بين الـزق والعـود

وهذان البيتان وأمثالهما هَوَّنَا دم الرجل فى عصر هانت فيه الدماء جميعاً ، وخاصة دماء أهل الفكر ، فأغرى الوزير الخليفة فأمـر بقتله فضربوه نحو سبعين سوطاً ومات تحت الضرب سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وقد جـاوزت سنه السبعين بشهور، وإذا كان بشار قد قتل على المجـون ، فقد كان نصف كبار رجال الـدولة شركاءه فى ذلك ، وأولهم الخليفة المهـدى نفسه ، فقد كان مـاجناً فاسقـاً يستر فسقه بظاهر من الـورع ، وكان الوزير نفسه على رأس قائمة الفـاسقين ، ولكن دم رجل الفكر كان أهون على الناس من قلامة ظفر ، فقتل الرجل ولم يأسف على موته أحد .

ومسكين رجل الفكر تحت رحمة الطغـاة ، على رأسه تحط كل الذنوب ، وبـه وحده يحل كل عقاب ؛ لأنه لمجرد كونه رجل فكر ـ عدو الطاغية محكوم عليه أبداً بالموت .

***

المفكّر والمتسوّل والنديم والمهرّج والمعلّم

منذ سنوات طويلة أهدانى الصديق الأديب محمد عبده عزام ديوان أبى تمام حبيب ابن أوس الطائى من تحقيقه ، فتصفحته وقلت :

ـ هل هذا كل شعر أبى تمام ؟ !

فقال : هو والله كل شعره ، نشرناه كما جمعه الصولى ، وراجعناه على ما جمع علىّ ابن حمزة الأصفهانى من شعره .

قلت : ما أظن هذا بقية ما استطاع أبو تمام أن يقول من الشعر ؛ لأنه لو قال كل ما كان يدور فى نفسه لقتلوه ، كما قتلوا دعبلاً الخزاعى وابن الرومى ؛ لأن أهل الفكر عندنا أصبحوا منذ أن قامت سطوة الدولة كالدواجن ، قص الظلم أجنحتهم فاستحال عليهم الطيران والتحليق ، وأصبحوا متاعاً تملكه الدولة إذا هم رضوا بأن يكونوا دواجن ،فإذا تمرد واحد منهم على الدولة وأراد التحليق والتعبير عما فى نفسه بحرية وصدق قصوا جناحه بالضرب والسجن والتعذيب ، أو قصوا رقبته من أصلها إذا خافوه وتبينوا أنه عصى على الترويض والتدجين ، فالذين خضعوا واستكانوا وساروا فى ركاب الدولة أمنوا سطوتها وعاشوا ، ومعظم هؤلاء طووا الحقائق فى نفوسهم ، ألقوا أسلحتهم واستسلموا ، وقالوا ما سمح لهم السلطان أن يقولوا ، وظل الباقى فى نفوسهم حبيساً حتى ماتوا به ، أما الباقون من المتمردين على الظلم والطغيان فقد اغتالتهم أيدى الظالمين قبل أن يقولوا ما يريدون ، وأنا أقول لك : إن مثل الفكر العربى فى ذلك مثل جبل الثلج العائم فى مياه المحيط ، فالذى تراه العين منه هو السُّبع البادى للعيان ، وأما الباقى ، وهو ستة أسباع فقد غرق فى مياه بحر الظلمات !!!

وأمامك تاريخ الفكر العربى كله إلى مطالع العصر الحديث .

تعال نطبق عليه هذه القاعدة لنرى إن كانت تصدق أو لا تصدق .

* * *

ونبدأ بعصر صدر الإسلام ، فنقرأ أسماء الظاهرين من أهل الفكر : من الشعراء وأهل الأدب ولدينا أسماء [جميل بن معمر ، وعمر بن أبى ربيعة ، والأحوص ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والطرماح بن حكيم ، والكميت بن زيد الأسدى] وهذه هى أسماء الكبار من أهل الصف الأول ، وفيهم كفاية لمطلبنا هنا ، فنجد أن جماعة من هؤلاء قد بالغوا فى الخضوع والطاعة حتى تركوا شئون الأمة جملة ، وانصرفوا إلى اللهو والعبث والغزل والتشبيب ، وهؤلاء جميعاً شعرهم جميل مطرب ، ولكنه هامش الأدب لا صلبه ولا لبابه ؛ لأن الأديب الجدير بهذا الاسم ينبغى أن يكون لسان قومه ، وضمير أمته ، المعبر عن أفكارهم وآمالهم وآلامهم ، كما كان الشاعر الجاهلى لسان قومه المعبر ، حتى الذين بالغوا فى الفخر من الجاهليين كانوا يرفعون بمبالغاتهم شأن قومهم ويخيفون أعداء قبيلتهم حتى يخشاهم الناس ، وهل هناك أبلغ فى هذا من لامية العرب للشَّنْفَرَى ، حيث نجد الشاعر الصادق يبدأ بلوم أهله على تقاعسهم فى طلب المعالى ، حتى إنه يقول : إنه زهد فيهم ولا يريد أن يكون منهم :

أقيموا بنى قومى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ثم يمضى فيمدح قومه فيجعلهم سادة الناس قوة وبسالة وحماسة ، أو يذكر فضائل نفسه على أنها مثال لفضائل قومه ، فهو كريم زاهد فى الطعام ، إذا وضعوهُ لم يتهافت عليه ولا يسابق غيره فيه ، وإنما هو رجل ابن نعمة شبعان ، يضع الطعام للناس ويسعد إذ يراهم يأكلون بين يديه ، حتى إذا شبعوا جلس هو فأصاب من الطعام أيسر اليسير .

وهو ـ أى الشاعر الجاهلى ـ فى أثناء كلامه يذكر أسماء أماكن وعيون ماء فى مواطن قبيلته ويفخر بها وبجمالها كأنها وديان تجرى فيها الأنهار وتنبت فيها الأشجار الوارفة الظلال ، وما هى بذلك طبعاً ، وإنما هو البدوى الحر الأبى الذى يتمسك بالحرية وعزة النفس ويرى فى الصحراء الجرداء ذلك الجمال كله ، ويستغنى بكرامته وعزة نفسه عن خفض العيش فى ظل كسرى وقيصر .

واستمع إلى جابر بن حُنَىّ التغلبى المتوفى / ٥٦٤ م قبل ميلاد رسول الله ﷺ بنحو

سبع سنوات ، وهو هنا يبدى ألمه لتفرق أمر قومه ووقوع الفتنة بينهم ، وقد كانوا قبل ذلك أقوياء يرهبهم الأكاسرة والقياصرة :

لتغلب أبكى إذ أثارت رماحها ... غوائل شر بينها مُتثلم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم ... ومن لا يشد بنيانه يتهدم
إذا نزلوا الثغر المخوف تواضعت ... مخارمه ، واحتله ذو المقدم
أنفت لهم من عقل قيس ومرثد ... إذا وردوا ماء ، ورمح بن هرثم
ويوماً لدى الحشار من يلو حقه ... يبزبز وينزع ثوبه ويلطم
وفى كل أسواق العراق إتاوة ... وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم
وقيظ العراق من أفاع وغدة ... ورعى إذا ما أكلأوا متوحم
ألا تستحى منا ملوك وتتقى ... محارمنا لا يبوء الدم بالدم
نعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا ... وليس علينا قتلهم بمحرم
وكائن أزرنا الموت من ذى تحية ... إذا ما ازدرانا أو أسف لمائم
وقد زعمت بهراء أن رماحنا ... رماح قصارى ، لا تخوض إلى الدم

فانظر كيف يعتز هذا الشاعر الجاهلى بصحرائه ويفضلها على أرض العراق حيث يجبى رجال الأكاسرة الإتاوات والمكوس ، ويبلغ الأمر أن يقول : إن قبيلة بهراء التى خضعت للروم لم يعد أهلها بقادرين على القتال ، أما التغلبيون فأبناء صحراء على الفطرة ، كلهم شجاعة ونجدة رغم فقرهم .

فقارن بهذا شعر عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، سليل آل مخزوم الذى دجن ، وانفصل عن قومه ومضى ينفق أيامه فى الجرى وراء الغوانى والتشوق إليهن والبكاء ضعفاً أمامهن :

كتبت إليك من بلدى ... كتاب مُولَّه كَمِد
يؤرقه لهيب الشوق ... بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيد ... ويمسح دمعه بيد

وعمر بن أبى ربيعة كان يشهد مآسى ما يقع للمسلمين على يد طغاة بنى أمية ، فيغمض عينيه ويجد فى هذا الشعر الضعيف السلامة من الأذى وأمن السرب والدعة وخفض العيش ، ومثله فى هذا جميل بن معمر العذرى وشعره فى بثينة :

فلو أرسلت بثينة يوماً تبتغى ... يمينى ، وإن عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها بعد اليمين : سلينى

ثم خذ بعد ذلك الثلاثة الكبار من شعراء العصر الأموى : الأخطل أبا مالك غياث بن غوث بن الصلت الذى باع نفسه وضميره لمعاوية وبنى أمية ، وقال مثل البيت التالى الذى خان فيه ضمير أمته العربية :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

واقرأ أبياته التالية التى يقول فيها : إن بنى أمية خلفاء الله فى أرضه ، وإن الله نصرهم على علىّ بن أبى طالب ، ومن أيده خاصة الأنصار ، أى أنصار رسول الله ﷺ .

إلى امرىء لا تعدينا نوافله ... أظفره الله ، فليهنأ له الظفر
الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
نمت جدودهم والله فضلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد
هم الذين أجاب الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصى الخيل ، فاجتلدوا
ويوم صفين ، والأبصار خاشعة ... أمدهم ـ إذ دعوا ـ من ربهم مدد
على الألَى قتلوا عثمان مظلمة ... لم ينههم نشد عنه وقد نُشدوا

وهذا مثال من شعر الشاعر الذى باع نفسه وضميره للسلطان ، ومثل هذا الرجل كثير جدًا ، والغاية الأخيرة عندهم هى كسب المال ، فإن بنى أمية كانوا يعطون أمثاله عن كرم ؛ لأنهم يعطون من أموال المسلمين لا من أموالهم ، ولكن الشاعر يقول فيهم :

قــوم إذا أنعمـوا كــانت فــواضلهم سيبــاً مـن اللــه لا مَنٌّ ولا حســدُ

وعلى « هذه الفواضل » أى الإحسانات يهجو كل من نافس بنى أمية :

فـاللــه لم يـرض عـن آل الـزبير ولا عن قيس عيلان ، قـوماً طالما خـرجوا

فـى هامـة مـن قـريش دونهـا شـذب

أما الفارســان الآخران : الفرزدق أبو فراس همام بن غالب بن صعصعـة ، وجرير ابن عطية الخطفى التميمى ، فقد سلكـا فى الفكر والشعر مسلكاً غريبـاً ، فأما الفرزدق فقد نسى تمامـاً أن الشاعر لسـان قومه وضمير أمتـه ، وانصرف يستخدم شاعـريته الفذة أسوأ استخدام ، فهو يذم رجال بنى أمية حيناً ويمدحهم حيناً ، ويمدح ابن الزبير مرة ويهجوه أخـرى ، ثم حج ومدح علياً زين العابـدين وتجافى عن بنى أمية فحبسوه ، ولكنه عاد يمدح بنى أمية ، وأسرف فى هذا حتى لقب سليمان بن عبد الملك بالمهدى .

ثم هجا آل المهلب ، ثم مدحهم ، ثم هجاهم ، وعنـدما صارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك مـدحه بعـد أن كان يهجوه أميراً ، وهـو فى غلوائه تلك ينسى أن أمـة الإسلام واحدة ، فيأخذ هو جانب مُضَــر ـ لأنه مضرى ـ ويحمل على اليمن خصوم المضريين ، مع علمه ـ وهو الرجل الشـاعر اللبيب ـ أن كل فتنـة المضرية واليمنية ابتـدعها وأجج نارها بنو أمية ليسودوا بها العرب جميعاً .

فقل لبنى مــروان : مــابــال ذمــة وحـرمـة جـدّ ليس يــرعى ذمـامهـا

ألا فى سبيل اللــه سفك دمــائنــا بــلا جــرمـة منــا يبين اجترامهـا

أرى مضر المصرين قـد ذَلَّ نصرهـا ولكن قيســاً لا يــذل شــآمهــا

فغيرةُ أمير المؤمنين ، فــــــإنها يمانيــة حمقــاء أنت هشــامهـا

ثم يتعب الشاعر من طول التنقل والهرب من الـولاة ، فيستسلم للخليفة الوليد بن يزيد ويقول فى بنى أمية :

أمـا الـوليـدُ فإن اللـه أورثـه ... بعلمـه فيـه ملكـاً ثـابت الـدعم
خـلافـة لم تكن غصبـاً مشـورتها ... أرسى قـواعـدهـا الـرحمن ذو النعم
كـانت لعثمان لم يظلم خـلافتهـا ... فـانتهك النـاسُ منـه أعظم الحرم

وأمَّا جـرير بن عطيـة بن حذيفـة الخطفى ، فنشأ فقيراً فى بنى تميم وتكشف حين شب عن شاعـرية بـاهرة ، وبـدلاً من أن يعتز بقومـه وصحرائه كما كـان الجاهليون يفعلون ، نـراه يجرى ليبيع شاعـريته لبنى أميـة ، وتدركـه الغيرة من الأخطل شـاعر البلاط الأموى فيريد أن يجاريه فى التسـول فأسرع يمدح عبد الملك بن مروان ويذم ابن الـزبير ، بل هو لم يـوقـر الأموات فهجـا ابن الزبير بعـد مـوته ، وفى أثنـاء ذلك يقع فى الفرزدق وتهيج بينهما العـداوة ، ويقيم الشاعـران مسرحاً هـزلياً كلـه جرأة على الحق وإسفاف فى القول وتشاتم بالآباء والأمهات وتنـابز بالألقاب ، وأصبحت نقائض جرير والفرزدق ضحكة الناس وتسلية العصر ، والشاعر ـ وهو ضمير قومه ـ أصبح مهرجاً مضحكاً ، فيقول جرير فى الفرزدق :

ألا إنما كـان الفـرزدق ثعلبـاً ضغـا ... وهـو فى أشـداق ليـث ضُبـارم
لقـد ولـدت أم الفـرزدق فـاسقـاً ... وجـاءت بـوزواز قصير القـوائم

وضغا : معناها صاح ، والضبارم : الأسد القوى ، والوزواز : هو الإنسان الخفيف الطائش الذى لا يعتدل فى مشيه .

وقد أفحش فى هذه القصيدة وتجاوز حـده حتى أغضب كثيراً من الناس ورد عليه الفرزدق بقصيدة أفحش منها قال فيها :

وإن حـرامـاً أن أسـب مقـاعسـاً ... بـآبـائى الشـم الكـرام الخضـارم
ولكن نصفًـا لـو سببـت وسبنى ... بنـو عبـد شمس من منـاف وهـاشم
أولئـك آبـائى فجئنى بمثلهـم ... وأعيـذ أن أهجـو كليبـاً ودارم

ودارم : هى قبيلة جرير .

ويدخل فى هـذه المأساة الأليمـة الأخطل شاعر البـلاط الأموى والـراعى عبيد بن حصين النميرى وأبـو النجم الراجـز وهو الفضل بن قـدامة العجلى من بكـر بن وائل ، وهكذا يتخلى أولئك الفحول عن رسالتهم الرفيعة ويتركـون الأمة وقضاياها ومشاكلها وينصرفون إلى هـذا العبث يبتغون به إضحاك النـاس تارة ونيل أموال بنى أميـة تارة أخرى ، وإن الإنسان ليعجب كيف جاز لأولئك الشعـراء الفطاحل أن ينحطوا بملكاتهم التى لا شك فيهـا إلى هـذا الـدرك الأسفل من نسيـان وظيفتهم وإهـدار كـرامـاتهم والانحطاط بالفكر كله إلى مستوى يصعب علينا تصويره أو تصوره .

وأمـامى نقائض جـريـر والفرزدق وطبقـات فحـول الشعـراء لمحمد بن سـلام الجمحى ، وطبقات الشعـراء لابن المعتز والجزء السابع من كتاب الأغـانى ، ولا أصدق عينى فيما أقرأ من البذاءات والعبارات التى كانت تجرى على ألسنة أولئك الشعراء دون حياء أو خجل ودون تكلف ، وهذا هو أسوأ الظـواهر ؛ لأن العيب إذا صدر عن الإنسان طواعيـة دون تكلف كان معنى ذلك أن الإحساس الخلقى نفسـه قد خف ورق حتى لم يعد له وجود .

ويقول بعض العارفين بتاريخ العرب : إن السياسة هى التى أفسدت أخلاق الناس وجعلت أهل الأدب ينحرفـون هذا الانحـراف ، ونقول لهؤلاء : إن أهل السيـاسة فى تلك العصور ليسوا أهل فكر ، إنما هم كانوا رجال مطامع ودنيا ، وليس فى الدنيا من يقول : إن وظيفة رجال السياسة تقـويم أخلاق الناس ، إنما هذا واجب أهل الفكر ، وإذا نسى الناس جميعـاً حقيـقة الأمة ووحـدتها وصالحها ومبـادئها ، فإن هذا لا يجوز لـرجال الفكـر ، وها هى ذى دواوين الشعـراء الجاهليين فقل لى : أين تجد شـاعراً منهم خـان قومه أو قبيلته وحمل عليها عن سـوء نية أو طلباً للمال ، أفكان الجاهليون أيقظ ضميراً وأوعى ذهناً وأبعد نظراً من شعراء ما بعد الإسلام ؟ الجواب : نعم .

وقد حذر من ذلك رسول الله ﷺ فى إحـدى خطبه الثلاث فى حجة الوداع قال : إن المسلم أخو المسلم : إنما المسلمـون إخوة ولا يحل لامـرىء مسلم دم أخيه ولا مـاله إلا بطيب نفس منـه ، إنما أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولـوا لا إله إلا اللـه ، فإذا قالـوها عصموا دمـاءهم وأموالهم وحسابهم على اللـه ، ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعـوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إنى تركت فيكم ما لا تضلون به : كتاب الله ! ألا هل

بلغت ؟ قال الناس : نعم ، قال : اللهم اشهد [الواقدى ، مغازى ٣ / ١١١٣] وهذه المعانى كلها واردة فى القرآن مرة بعد أخرى ، وهى الميزان الخلقى لأمة الإسلام ، ولكن رسول الله ﷺ يجعلها هنا فى صورة الميثاق المباشر بين صاحب الرسالة الذى بلغها وكل فرد من أفراد الأمة على حدة ، فلعل بعض الناس لا يذكرون شيئاً من آيات العهد والميثاق بين الله سبحانه والمؤمنين ، ولعل بعضهم الآخر يقرؤها دون أن يفهمها أو دون أن يتفطن إلى معانيها ، فيضعها رسول الله ﷺ هنا موضع الميثاق المباشر بينه وبين كل مؤمن ، فإن بعض الناس لا يفهمون إلا إذا واجهتهم وألقيت الكلام فى وجوههم مباشرة وصككتهم بالحق صكاً .

ولكن إخواننا بعد رسول الله نسوا ذلك كله ، وعادوا لا ينفع معهم صك على الوجوه أو صفع على القفا ، فعادوا ضلالاً كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض ، وكان واجب أهل الفكر أن يقفوا فى وجه هذا التيار أو ينبهوا إلى خطورته ، وهذا أضعف الإيمان ؛ فما بالك وأصحابنا تدهوروا إلى ما هو دون أضعف الإيمان هذا ، فساروا دون حياء فى موكب الظلم والقتل بل تدنَّوا إلى ما دون ذلك فجعلوا أنفسهم ندامى أو مضحكين ومتسولين أو مسوخاً بين الناس ، وعندما يصل أهل الفكر إلى هذا المستوى فقد ألغوا وجودهم أصلاً ولا يقل لى هنا أحد : ولكن جريراً أبدع فى النسيب ، والفرزدق تجلى فى الصور والأخيلة وعمر بن أبى ربيعة تلألأ فى الغزل فأقول لك : والله ما كنا بحاجة إلى نسيب جرير إذا صدر عن قلب مريض ، ولا إلى صور الفرزدق إذا طلعت من نفس هزيلة ، ولا إلى غزل ابن أبى ربيعة إذا جاء من قلب خلى ، جعل الحياة ضحكة وذيل امرأة وخد أخرى .

ومن جميل ما يستوقف نظرنا أن بعض شعراء ذلك العصر كانوا ملتزمين جادين شاعرين بمسئوليتهم وكانت لهم مواقف سياسية واضحة قائمة على شعور أخلاقى سليم ، وهؤلاء عرَّضُوا أنفسهم للخطر وواجهوا الظالمين دون خوف وهتفوا بآرائهم غير هيابين فكانت جديتهم وسلامة خلقهم سبباً فى احترام الحكام إياهم وهيبتهم لهم فتعقبوهم ولكنهم هابوهم ، فلم ينالوا من شرفهم أى مبلغ وظلوا رغم غضب الدولة عليهم أعز مكاناً ممن باعوا أنفسهم ونسوا رسالتهم وتدنوا بأدبهم ، وأمامك أشعار عبيد الله بن قيس الرقيات والطرماح بن حكيم والكميت بن زيد الأسدى ، فهؤلاء جميعاً

ظلوا معظم أيامهم إلى جانب الأمة على الظالمين ، حقاً إن بعضهم كانوا متشيعين لآل البيت من دون الأمة ، ولكن هذا موقف سياسى اختاره الرجل ، وأنت تحترمهم لموقفهم مهما كان رأيك مخالفًا لرأيهم ، ولا يقلل من فضلهم أن بعضهم تعب فى النهاية ومال إلى مهادنة بنى أمية أو بنى العباس ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا نطلب من كل إنسان أن يكون حديداً إلى النهاية ، كما كان قطرى بن الفجاءة ، والإنسان لحم ودم ، فإذا بذل أقصى وسعه ثم تعب فلا تثريب عليه ، والغريب أن هؤلاء الأحرار من الشعراء الذين وقفوا موقف الرجال ورفضوا أن يبيعوا ضمائرهم وعانوا الكثير فى سبيل ذلك يضعهم ابن سلام وابن المعتز فى الطبقة السادسة وما دونها من شعراء العصر الإسلامى ، أما شعراء الطبقة الأولى فهم جرير والأخطل والفرزدق والراعى أى المادحون المهرجون بالنقائض .

ولكن أمامك إذا شئت شعر الخوارج وأظنك تميل معى الآن إلى القول بأنهم ليسوا بخوارج ، وإنما الآخرون هم الخوارج وهل تعتبر أبا العباس السفاح ممثلاً للأمة ، وقطرى بن الفجاءة غير ممثل لها ؟ إذا كان الإسلام هو الشورى واحترام العقيدة والتزام الخط الأخلاقى الإسلامى واحترام كرامة الإنسان فالأزارقة والصفرية والإباضية إلى هذه المعانى أقرب من سواهم ، ولكن رجال الحرب والسياسة أخرجوا الأمة عن منهاج الله وجعلوها رعية ، وجعلوا أنفسهم رعاة ، وجاء معظم رجال الفكر فجعلوا أنفسهم حداة هذا القطيع الحزين ، والقلة الباقية من أحرار الفكر والرأى الذين آمنوا بالشورى وحكم الجماعة ورفضوا استبداد بنى أمية ورجالهم وبنى العباس وأنصارهم أصبحت تسمى خوارج ، وحكم الظالمون عليهم بأن يعيشوا خارج الأسوار كأنهم خوارج على القانون ، وإذا لم يعجبك تشدد الأزارقة الحرورية فأمامك الصفرية أصحاب زياد بن الأصفر وكانوا أرفق من غيرهم فى محاربة عدوان الظالمين ومن أيّدهم ، وأمامك بعد ذلك إذا كنت لا تريد أن تقف موقف المعادى للحكام المتصدى لحربهم ، أمامك جماعة الإباضية أتباع عبد الله بن إباض المرى التميمى ، فهؤلاء لا يكفرون الجماعة ولا يعلنون الحرب على الوادعين .

وإنما هم ينشئون جماعتهم الشورية الحرة بعيداً عن أيدى رجال الدولة ، فى جبال عمان تارة أو فى جبال المغرب تارة أخرى ، حتى لا يبيعوا إيمانهم ببخس ولا يذلوا

رقابهم لجبار ولا يفرطوا فى أمانة الإسلام وكرامات المؤمنين .

هل بلغتك أخبار غزالة الحرورية تلك المرأة الباسلة التى وقفت عند مبدئها وأعلنت الحرب على جبار العصر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهاجمت البصرة مع رجالها فرعب الحجاج وطلب العون من جنده وأعجب بها شاعرٌ يسمى عمران بن حطان ، فذهب إليها ليردها عن مذهبها خوفاً عليه فطوته بإيمانها تحت جناحها وقال أبياته التى لا بد أنك سمعتها يخاطب فيها الحجاج :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحىْ طائر

صدعت غزالة قلبها بفوارس ... تركت منازله كأمس الدابر

وهذا الرجل الشهم قال يخاطب الفرزدق :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارجُ فضل المقسم الجواد

لا تقل فى الجواد ما ليس فيه ... وتسم البخيل باسم الجواد

وهذا الرجل الكريم يفخر بأنه لم يكذب فى شعره قط ، واستمع إليه يقول فى ذلك مخاطباً امرأته وكان اسمها جمر :

يا جمر إنى على ما كان من خلقى ... مثنٍ بخلّات صدق كلها فيك

الله يعلم أنى لم أقل كذباً ... فيما علمت وإنى لا أزكيك

ولكن واحدًا من أهل الفكر فى صدر الإسلام ربأ بنفسه عن معظم ذلك وقام بواجب المفكر الحر ، وجعل نفسه معلم أمته ومربيها وخادمها بفكره وما منحه الله من علم ، ولكى يقوم بهذه المهمة هادن السلطان وحاول إصلاح حاله ورفض فى الوقت نفسه أن

يدخل فى خدمته حتى لا يكون من أدواته وأعوانه ، وهذا الرجل هو الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر [١٥٩ ـ ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ ـ ٨٦٩ م] معلم العرب ومثقفهم ، وقد زان هذا العصر كله بأدبه وفكره وعلمه وخلقه ، وهو جدير منا بوقفة هنا ؛ لأنه مثال لصاحب الفكر الذى عرف كيف يوازن بين حريته واستقامة خلقه وما فرضه أهل السلطان على الناس من ظلم وجبروت وانحراف .

وقد نشأ الجاحظ نشأة متواضعة ، ولكن فكره واجتهاده رفعاه عن مذلة الحاجة ، فأخذ طريقه صعداً كالشهاب وهو منسوب إلى كنانة ، ولكن الغالب أنه مولى من أصل إفريقى سمت به ملكاته إلى مراتب فحول العرب ..

وهب الله الجاحظ ذهناً وقاداً وقريحة حافظة وملكة أدبية قل أن نجد لها نظيرًا ، ولكنه لم يركن إلى ملكاته ، فمضى ينميها بالقراءة والدرس وبلغ من إقباله على ذلك أنه كان يقيم فى دكاكين الوراقين أى بائعى الكتب حتى يقرأ كيف شاء .

نشأ الجاحظ فى البصرة ودرس مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن على المؤدبين ، ثم انطلق يطلب العلم فى رحاب مساجد البصرة وهى مولده ومهده ومغنى شبابه ، وكانت البصرة إذ ذاك عاصمة الفكر فى عالم الإسلام ، وقد اشترك عالمان معاصران فى تعريفنا بأحوال البصرة ونظام الناس الاجتماعى فيها والجو الفكرى الذى كان يسودها .

الأول هو : د / أحمد الصالح على رئيس المجمع العلمى العراقى فى كتابه « التنظيمات السياسية والاجتماعية فى البصرة » وهو من كلاسيكيات الدراسات التاريخية العلمية .

الثانى هو : المستشرق الفرنسى المعروف شارل بيلا فى كتابه الكلاسيكى أيضاً « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ »

Le Mifiev Iasiem et la formation du Djohis (Paris 1953)

وهذه مناسبة أقول فيها لبعض الناس عندنا : كفى حملةً على المستشرقين واتهاماً لهم بالحق والباطل ، فإن فيهم محسنين كما فينا محسنون ، وفيهم مسيئون كما أن فينا مسيئين ، وأفضالهم على النهضة الأدبية وبعث التراث العربى لا تنكر ، وما تعلمنا

نشر النصوص وتحقيقها على الضبط إلا منهم ، وما عرفنا فهرسة الكتب على وجه الدقة إلا على أيديهم ، وهذا الجاحظ درسه من علمائنا نفر كبير ، ولكن الذين قرأوه ودرسوه من المستشرقين أكثر ، وفيهم أسماء جديرة بكل احترام من أمثال شارل بيلا و « ا . ج أربرى وفرانشيسكو جابرييلى وجوستاف فان فلوتن وج فنكل و أوريشر » وشارل بيلا بالذات أنفق سنوات طويلة من عمره يدرس الجاحظ وينشر نصوصه ويكتب المقالات عنه ، وهو الوحيد الذى أتانا بثبت كامل لكتابات الجاحظ ما ظهر منها وما لم يظهر فى مقال له عظيم فى مجلة أرابيكا التى تصدر فى باريس المجلد الثانى من سنة ١٩٦٢ .

وهذا الكلام لا يقلل من أهمية العمل الجليل الذى قام به علماؤنا فى نشر أعمال الجاحظ ، وأذكر منهم هنا بالشكر والعرفان عبد السلام هارون ، وطه الحاجرى ، وحسن السندوبى ، وهم من أجلاء العلماء .

نقول : إن الجاحظ درس على نطاق واسع وهو رجل علَّم نفسه بنفسه شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أعلام الفكر عندنا من أمثال ابن حزم ، وعباس محمود العقاد ، فبدأ بشهود مجالس المساجديين وهم ناس من أهل الفكر كانوا يجلسون فى المساجد للمناقشة ، ثم درس على بعض الشيوخ وأفاد منهم قدر ما أفاد من شهود اجتماعات أهل الأدب والفكر فى المربد ، وهو سوق الدواب فى البصرة ، وهو المكان الوحيد المفتوح لأهل الفكر ليتلاقوا فيه دون حرج ، وهناك أيضاً كان الشعراء يتلاقون ، وما أكثر القصائد العصماء والنقائض التى طارت كل مطار والتى سمعها الناس لأول مرة فى سوق الدواب هذا .

حَصَّلَ الجاحظ العلم على نطاق واسع ، ونشره كذلك على نطاق أوسع ، وقد اندرج من شبابه فى جماعة المعتزلة ، وهم جماعة أحرار الفكر حاولوا ابتداء من القرن الثالث أن ينظروا للدين نظراً عقلياً دون أن يفرطوا فى ذرة من إيمانهم ، وهم مدارس شتى حاولت ـ كل منها بطريقتها ـ أن توفق بين العقل والدين ، وكان الناس يظنون أن بينهما تناقضاً ، مع أن العقل هو الدين والدين هو العقل ، وما منع المعتزلة من أن يقودوا حركة فكرية كبرى إلا أنهم ظنوا أنفسهم طبقة فوق الناس بعلمهم ، فتعالوا على الأمة ، ولم ينفعوها بعلمهم ، كما سنرى فى فصل قادم .

وهادن الجاحظ الدولة العباسية لا عن تسليم لها ، بل لأنه مؤدِّب ومعلِّم ولا يريد أن يدخل فى مشاكل مع السلطان ، إنما هو مع العقل دائماً ، فهو يؤيد الصالحين من بنى العباس ومن حسن حظه أنه عاصر ـ فيمن عاصر ـ المأمون وهو مع ذلك لم يغمط حق آل على بن أبى طالب ، ولكن الجاحظ كان يزن كلامه بالعقل ويوازن بالحساب ، ففى بعض رسائله لا يذكر العلويين وفى أخرى يثنى عليهم ، وهو يعرف قدر العرب ، ويكتب فى فضائلهم ، ولكنه لا ينسى الموالى وغير العرب ، وهو يكتب فى فضائل الترك وجند الخلافة وفضائل السودان ، وهو يكتب عن صنوف الحيوان والعلم كتبًا هى كلها استطرادات دون منهج ، والرجل لم يتلق العلم على منهج حتى يعلمه على منهج ، فهو يعطيك إياه كما أتاه مرسلاً فى كتب كبيرة أو صغيرة فهو بستان وأنت البستانى وهو يزرع وأنت تحصد ، وهو لا يتبذل ولا يتسول أو يطلب وإنما يأتيه المال دون مسألة ، وهو عقل متحرك نشيط يفتح لك الآفاق ويحرك ذهنك ، وهو لا ينسى وظيفته معلماً أبداً فلا يبدأ رسالة من رسائله أو كتاباً من كتبه إلا دعا لك ولنفسه : اعلم أرشدنا الله وإياك وحفظك وصانك .

* * *

المُفَكِّرُونَ فِى وَادِى عَبْقَر
وَالنَّاسُ فِى وَادِى سَقَر

لم يبلغ أهل الشعر وأهل الفكر من الغنى والمال والوجاهة فى عصر من عصورنا الماضية ما بلغوه خلال العصرين العباسى الأول والثانى ، فقد حكى صاحب الأغانى أن الشاعر سلماً الخاسر المتوفى سنة ١٨٦ ، خلف ثروة مقدارها ٥٠ ألف دينار و ١٥٠ ألف درهم من الضياع ، وسلم بن عمرو هذا كان مداح ملوك ووزراء ، وقد بلغ فى هذا النوع من الشعر الرخيص حتى صار يتقاضى عن القصيدة الواحدة ألف دينار وألفين ، وأنت إذا قرأت مديحه أعجبك لفظه دون أن تعجبك روحه ، فهو رجل يتسول على أبواب الملوك ، بمثل قوله يمدح الخليفة المهدى ثالث خلفاء بنى العباس :

جمع الخلافة والسما ... حة والشجاعة فى نظام
ملك ضريبة رأيه ... أمضى من السيف الحسام
يقضى أمور المسلمي ... ن برأى حزم واعتزام
قالت قريش كلها ... وهم الكرام بنو الكرام
وخيار من وطىء الحصا ... من بين كهل أو غلام
فضل الملوك محمد ... فضل الحلال على الحرام
فاسلم أمير المؤمنيـ ... ـن فانت رهن بالسلام

وهذا فى رأينا شعر لا يساوى ألف دينار ولا عشرة ، ولكن السبب فى هذا الكرم هو أن الخليفة المهدى نفسه كان ــ بصفته خليفة المسلمين ـ لا يساوى عشرة دراهم ، فإذا جاء سلم بن عمرو هذا ليقول له : إنه أفضل الملوك جميعًا أعطاه هذا المال ، ولا عليه ، فهذا مال المسلمين وضع فى يد منافق ضئيل الحجم مثل محمد المهدى هذا ، فصار يعطى منه لكل خادم ومادح ومنافق ، وهذا الخليفة المهدى الذى كان يزعم أنه حامى السنة والجماعة ورمز الإيمان ، كان يقتل الناس على الظن ، بل بلغ به الأمر عندما

غضب على وزيره أبى عبيد الله بوشاية وزير آخر هو الربيع بن يونس ، أن أمر أبا عبيد الله بقتل ابنه بيده بتهمة الزندقة ، فلما قام الشيخ ليضرب عنق ابنه تعثر ووقع ، فأمر رجلاً آخر فقتله ، وكان يحضر هذا المجلس فقيه قاض يسمى عافية بن يزيد ، فطلب إلى الخليفة أن يقبل توبة الرجل ؛ لأنه صاح بإعلانه التوبة ، وحكم الشريعة فيمن يتهم بالزندقة أن يستتاب ، فإذا تاب خلى سبيله ، ولكن المهدى غضب على القاضى ؛ لأنه كان يريد قتل الرجل ظلماً ؛ فأمر بضرب القاضى وإخراجه من مجلسه ، فأخرج على أسوأ صورة .

وكان المنصور والد المهدى قد خلف له فى خزائن الدولة ٩٦٠ مليون درهم [والدرهم فى ذلك الحين قرابة العشرة قروش] فأنفق المهدى معظم ذلك المال فى لذاته وأهوائه .

وهذا المتشدد فى الدين ظاهراً كان لا يمانع فى شرب الخمر ، وكان ندماؤه من أمثال عمر بن بزيع والمعلى مولاه يشربون عنده بحيث يراهم الجهشيارى ١٥٩ ـ ١٦٠ ، وقد أرغم المهدى عمه عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد لموسى الهادى بن محمد المهدى ، وأعطاه فى مقابل ذلك عشرة ملايين من الدراهم ، وأعطاه ضياعاً بالزاب الأعلى وكسكر [الطبرى ٨ / ١٢٥] كل ذلك من مال المسلمين .

وسلم بن عمرو الخاسر الشاعر الذى قال فى الخليفة المهدى هذا الكلام كذباً ، قال شعراً آخر ضعيفاً فى تهنئة موسى الهادى بولاية العهد مع علمه بأن عيسى بن موسى تنازل عن ولاية العهد مرغماً ، ثم وافق على التنازل لقاء المال الذى ذكرناه ، فقال سلم يمدح موسى الهادى :

لقد جعل الله فى راحتيك ... حياة النفوس وآجالها
وجدناك فى كتب الأولين ... محيى النفوس وقتالها
وموسى شبيه أبى جعفر ... ومعطى الرغائب سوالها

وقد أنكر عليه أبو العتاهية هذا التسول وقال فيه :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال ؟

فلما بلغت هذه الأبيات سمع سلم قال : ويلى على ابن الفاعلة ! .. قد كنز فى بيته البدور [أى أكياس الدنانير] ، وأنا فى ثوبىَّ هذين ، وليس عندى غيرهما ، وهو ينسبنى إلى الحرص . ابن المعتز : طبقات الشعراء ١٠٥ .

وهذا الكلام يقوله الرجل الذى خلف الأموال الجسيمة التى ذكرناها ، وهو هنا يشبه عتاة المتسولين الذين يسيرون فى أسمال ، والمال فى بيوتهم أو ملابسهم مخزون .

ومثل سلم الخاسر فى ذلك مروان بن أبى حفصة الشاعر ، فقد حكى ابن رشيق فى العمدة أنه خلف ثروة طائلة ، وأن جوائزه عن القصائد كانت تبلغ ١٠٠ ألف دينار أحياناً ، وكان يفخر بتسوله :

ما زلت آنف أن أؤلف مدحة إلا لصاحب منبر وسرير
ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وهذا مروان بن أبى حفصة لم يكن متسولاً فحسب ، بل كان مزوراً أيضاً ، وهو صاحب البيت الخسيس الذى قاله متقرباً لبنى العباس ومنكراً حق أبناء على بن أبى طالب فى الخلافة :

أنى يكون ؟ وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

وقد كذب على الواقع بهذا القول ، لأن أبناء على بن أبى طالب لم يكونوا أبناء فاطمة فحسب ، بل كانوا أبناء ابن عم الرسول ﷺ ، وقد نال مروان بهذا البيت من بنى العباس مالاً جسيماً ، وكان قبل ذلك يمدح معن بن زائدة ورجال الأمويين ، فلما ذهبت دولتهم تحول بتسوله إلى أبواب السادة الجدد .

وبلغ من وفرة المال فى أيدى هذا الطراز من الشعراء أن أبا نواس والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى كانوا يتنافسون فى إنفاق المال دون حساب ؛ لأنهم كانوا يكسبونه دون حساب أيضاً ، وكانوا يكسبون هذا المال من أيدى

حكام معظمهم ظلمة فاسقون ، فكان مالهم كله حرامًا ، وعلى هذا المال الحرام عاش أولئك الشعراء ، فلم يفتح الله عليهم بخير ، رغم أنه كان فيهم شعراء فطاحل رزقهم الله من الشاعرية ما كان جديراً بأن يكون فخراً للعربية وأهلها ، لو أنه وجه فى اتجاهات الخير أو الإنسانية ، ولكن هؤلاء العباقرة أنفقوا ملكاتهم الغادرة فى أسوأ ما تنفق فيه الملكات : مديح الملوك والسروات والخمريات والطرديات ، وما إلى ذلك مما يعجبك نظمه وجرسه وتسحرك موسيقاه ، ولكنك تخرج منه صفر اليدين أفقر مما دخلت .

وهذا هو الذى يغيظنا من أولئك الأفذاذ ، فإن الإنسان إذا لم يرزق ملكة جليلة وكان حظه من المواهب قليلاً ، فمضى يتكسب بالقليل الذى عنده ، لم يكن عتبنا عليه شديداً ، فهذا رجل مسكين يرتزق على قدر ما يستطيع ليقيم أوده ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

أما أن يكون الإنسان عبقرياً موهوباً من طبقة أبى نواس وهو أبو على الحسن بن هانىء [١٤٥ ـ ١٩٨ هـ / ٧٦٢ ـ ٨١٣ م] ثم ينطق شعره وموهبته فيما لا ينفع الناس فى شىء ، فهنا يكون لومنا شديداً ونكيرنا قاسياً ، لأن الله آتانا كنزاً فأبى صاحبه إلا أن يكون سفيهاً ، فأنفق ما عنده فى هباء لا يتحصل منه شىء ، ونحن نقرأ لفحول شعراء الدنيا ، فنجدهم خدموا أممهم بملكاتهم ، وأنشأوا لها صفحات من المجد من أمثال دانتى الليجيرى ووليام شكسبير وولفجانج جيته ، ثم ننظر فيما خلف لنا أبو نواس فتدركنا الحسرة ، ولا نزاع فى أن أبا نواس رزق من الشاعرية والموهبة ما لا يقل عن هؤلاء ، فانظر والله ماذا خلف لهذه الأمة ، ثم انظر إلى ما خلف وليام شكسبير من عالم فياض بالحيوية والابتكار والإبداع والتصرف فى وجوه القول ، وتأمل كم أفادت الأمة الإنجليزية من الحكمة والشاعرية والتجربة الواسعة من شهود مسرحيات مثل يوليوس قيصر وماكبث والملك لير وهاملت وكليوباترة وأنطونيو وروميو وجوليت ، تجد نفسك أمام صرح عظيم من المجد للأمة وشاعرها ، فماذا قدم لنا أبو نواس بشاعريته ؟ كلام جميل رائع حقاً ، ولكنه خواء فارغ لا يتحصل منه فى النهاية شىء ، والله سبحانه لا يرزق الشاعر شاعريته لينفقها فى دكان خمار ، بل لكى يرفع بها نفسه وقومه .. ويعزها ويعزهم .

وانظر إلى الصرح الذى خلفه جيتـه من عمق يروع النفس فى فاوست ، إلى رقة تهز المشاعر فى هرمان ودوروينا ، إلى إبداع نفخر به نحن ـ ونحن غرباء عن الشاعر ولغته ـ فى قصة آلام فرتر ، ثم تقرأ شعر أبى نـواس فتنالك حسرة ! فهذا رجل وهبه الله مثل ما وهب هذين ، فماذا أعطانا من موهبته ؟ حقاً إننـا أمة عاثرة الحظ ، وما أعطانا الله خيراً إلا تصرفنا فيه أسوأ تصرف ! وهل فيما وهب اللـه الناس من الخير شىء هو أعظم من الإسلام ، هداية ورشد وعلم وإيمان وقوة وفكر وصراط مستقيم لو اتبعه إنسان وعرف حقه لساد به الدنيا ، فانظر واللـه أين نحن من أمم الدنيا ، وكأن الله لم يرزقنا إسلاماً ولا أعطانا إيمانـاً ، وفى دنيانا هذه أمم لم ينزل الله عليهم كتـاباً أو يبعث فيهم رسولاً ، لأن الله سبحـانه وتعالى عندمـا أهدانا الإسلام أمـرنا بأن نبلغه إلى الناس كـافة ، وأن نحمل الهدى والنور إلى أمم العالمين ، فـاجتهدنا جيلين ثلاثة ، ثم قعدت بنـا ملكاتنا عن المطلب العظيم ، وآثرنا الدعة ومطالب الدنيـا العاجلة ، وبدلاً من أن نسير بالإسلام أمة هى طليعة للخير والمسـاواة والفضيلة والشورى ، استخـدمناه فى إقامـة دول للظالمين وبقاء عروش سفاكين ، ويا ليتهم مع هذا كانوا ملـوكاً ! لقد كانوا لصوصاً وقطاع طرق وجبـارين ظالمين ، أقـامتهم الأمـة على العروش فكـافأوهـا بالسجـون والقتل والنهب ونسيان الإسلام ومعاداة الإيمان .

والصورة التى قـدم بها أبو نواس نفسـه للدنيا هى نفسهـا أشد عقاب لـه على ما صنع بملكته ، فهى صورة رجل ماجن مستهتر منحل الأخلاق لا يستحى ولا يرعوى ، وهو طول عمره يتصرف تصرف غلام فاسد مفسود لا يعرف مسئوليته لا عن نفسه أو ملكته أو أمام أمتـه أو ملكه ، فهل هذا كل ما كان يمكن أن نخـرج به من أبى نواس ؟ لا والله ، والرجل كان عالماً دارساً حافظاً ، قـال فيه ابن المعتز : كان أبو نواس عالماً فقيهاً ، عارفـاً بالأحكـام والفتيا بصـيراً بالاختـلاف ، صـاحب حفظ ونظـر ومعرفـة بطرق الحديث ، يعرف نـاسخ القرآن ومنسوخـه ومحكمه ومتشابهه ، وقـد تأدب بالبصرة ، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهـاً وأدباً ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين .

وحدثنى حمدون بن أحمد القصار قال : حدثنى يوسف بن الداية قال : قال لى أبو نواس : أحفظ سبعمائة أرجوزة ، وهى عزيزة فى أيـدى الناس ، سوى المشهور عندهم ،

وكان لزم بعد والبة بن الحباب خلفاً الأحمر ، وكان خلف نسيجاً وحده فى الشعر ، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والملح ، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس ، ثم دخل فى قول الشعر ، فبرز على أقرانه وبرع على أهل زمانه ، طبقات الشعراء لابن المعتز ١ ـ ٢ .

وليس فى هذا الكلام مبالغة ، فإن الرجل كان فى الحقيقة موهبة يندر أن نجد لها مثالاً فى العلم والمعرفة ، وله قصيدة بديعة يفضل فيها اليمنيين على العدنانيين ، وكان فى أبى نواس نفور من العدنانية لتعاليهم على الناس وزعمهم أنهم أفضل خلق الله لمجرد أنهم عدنانية ، وهذا تفكير غير إسلامى ؛ لأن الله سبحانه خلقنا سواسية من تراب ، كلنا لآدم وآدم من تراب ، وإنما نحن نتفاضل بالتقوى وهى جماع فضائل الإنسان .

أقول : إن هذه القصيدة تدل على علم واسع جدًّا بتاريخ العرب ودقيق تفاصيله ، واسمع إليه يقول فيها :

واهج نزار وافرِ جلدتها ... وهتِّك الستر عن مثالبها

وأحبب قريشاً لحب أحمدها ... واشكر لها الجزل من مواهبها

إن قريشاً إذا هى انتسبت ... كان لنا الشطر من مناسبها

* * *

أما تميم فغير راحضة ... ما شلشل القيد فى شواربها

أول مجد لها وآخره ... ـ إن ذكر المجد ـ قوس حاجبها

وقيس عيلان لا أريد لها ... من المخازى سوى محاربها

وما لبكر بن وائل عصم ... إلا بحمقائها وكاذبها

ولم تقف كلبها بنو أسد ... عبيد عيرانه وراكبها

إلى آخر هذه القصيدة التى تدل على علم غزير بتاريخ كل قبيلة ، فهو يقول : إن كل ما تفخر به تميم فى تاريخها كله هو رئيسها حاجب بن زرارة ، وكان من شيوخ تميم الذين وفدوا على النبى ﷺ ، وهم يحسبون أنهم أعز أهل الأرض وأعلمهم ، فأراهم

الرسول عن طريق خطباء الإسلام وشعرائه أنهم أجهل الناس ، وهو يذكر من مخازى قيس عيلان قبيلة بنى محرب ما كان من سوء موقفها من الإسلام أيام الرسول ، ويعير قبيلة بكر بن وائل بما اشتهر به زعماؤها من الحمق والترامى فى المهالك .

وهذا الرجل الذى يسوق التاريخ هـذا المساق السهل الممتنع كان يستطيع ، لو أنه وجَّه شاعريتـه التوجيه السليم ، أن ينشىء لنا شيئاً هو أعظم من الشـاهنامة ، فإن أبا نواس دون شك أشعر من الفردوسى ، ولم يكن حافظ الشيرازى بأعظم من أبى نواس ملكة ، ولكنه كـان رجلاً محترماً وإنساناً جليـلاً ، فأنشأ من الشعر الإنسانى الفلسفى الجميل ما جعله حقاً من أرفع شعراء الإسلام درجة ومكانة ، وهو علم من أعلام الفكر فى الدنيا ، نقرأ شعره مترجماً إلى كل لسان ، أما أبـو نواس فأضاع شاعريته فى مجونه ، وحاله حال رجل أعطيته قارورة عطـر رفيع القدر فلم يجد ما يفعله بها إلا أن يصب ما فيها فى بالوعة ! واقـرأ الشعر التالى لأبى نواس فى وصف مجلس خمر ، وقل لى : إن كان من الممكن لشاعر أن يصل بشعره إلى هذه الطبقة من الإتقان مع تفاهة الموضوع وهباء المقصود :

ودار نـدامـى عطلـوهـا فادلجوا ... بها أثـر منهم ، جـديـد ودارس

مسـاحب من جر الـزقاق على الثـرى ... وأضغـاث ريحان ، جنى ويـابس

حبست بها صحبى وجـددت عهـدهم ... وإنى على أمثـال هـاتيك حـابس

أقمنـا بها يـومـاً ويـومـاً ثـالثـاً ... ويـومـاً لـه يـوم الترحل خـامس

تـدور علينـا الـراح فى عسجـديـة ... حبتهـا بالـوان التصـاويـر فـارس

قـرارتها كسرى ، وفى جنبـاتها ... مهـا تـدريها بـالقسى الفـوارس

فللـراح مـا زرت عليـه جيـوبها ... وللماء مـا دارت عليـه القـلانس

فانظر كيف يصف لك الدار التى شربوا فيها بعد أن رحلوا عنها ولم يبق فيها منهم إلا آثارهم الدارسة ، فأنت ترى آثـار زقاق الخمر التى جروها على الثرى ، وعلى الأرض بقايا الزهور التى كانت معهم ، بعضها جف وبعضها ما زال رطباً .

ثم انظر إلى تصـويره للكأس التى شرب فيها ، فهـو يرى الخمر فيها ذهبيـة بلون

الذهب ، والكأس مزينة برسوم رسمها فنانون من الفرس ، وهذه التصاوير ترى فى أسفلها رسم كسرى وعلى جوانبها تصاوير فرسان يطاردون الظباء وفى أيديهم القسى ، وقد أضيف الماء إلى الخمر فطفا أعلاها قبل أن يختلط بها ، فبدت تصاوير قلانس الفرسان فى الماء .

فهذا مستوى من القدرة الشاعرية لا يصل إليه واصل ، بل إن الرجل يصف أحاسيس نفسه عندما سمع قارئاً يقرأ القرآن ويصل إلى قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين** ﴾ قال أبو نواس :

وقرا معلناً ليصدع قلبى ... والهوى يصدع الفؤاد العزوما

أرأيت الذى يكذب بالدين ... فذاك الذى يَدُعُّ اليتيما

وهكذا ينجح أبو نواس دون تكلف فى تضمين معنى الآية بل معنى سورة [الماعون] فى لمحة خاطفة .

وأنت تسأل : ماذا فى الخمر حتى ينفق أبو نواس فى الكلام عنها أكبر شطر من شاعريته ؟ .. مع أن الخمر ليست جزءًا من ثقافتنا ، بل إن ديننا حرمها - بحق - حماية للعقل والجسم الإنسانى من شرورها ، ولكن شعراءنا مع الأسف الشديد كانوا فى أحيان كثيرة يعيشون خارج نطاق الأمة نظاماً وأدباً ودِيناً ، أليس من العجيب أن يظهر فى مجتمع يحرم فيه شرب الخمر رجل يسمى الحصرى القيروانى يؤلف كتاباً فى نحو ألف صفحة عنوانه وموضوعه : السرور فى وصف الخمور ! سرور فى عينك أيها الأعمى القبيح ! وفى فرنسا وهى بلد الخمور فيما نزعم يظهر فى أواخر القرن الماضى شاعر فاسد الطبع عظيم الشاعرية هو أرنور رامبو يفسد من حوله بإباحيته وجرأته ، ويجر معه إلى الهاوية شعراء آخرين منهم شارل بودلير وبول مارى فرلين ، وتجتمع حولهم جماعة من الشعراء الإباحيين فينفر منهم المجتمع الفرنسى ويطلق عليهم الناس هناك اسم الشعراء الملاعين Les Poetes Maudits مع أن واحدًا منهم على الأقل وهو بول فرلين تاب وأنقذ نفسه من تلك الحمأة وصلح حاله ،وقال شعراً إنسانياً دينياً عظيماً أحبته بسببه الأمة الفرنسية وغفرت له ما سبق من نزواته مع الملعون حقاً أرنور

رامبو ، وصاحبنا أبو نواس أوغل فى اللعنة من أولئك الملاعين جميعاً ، فما أكثر خسارتنا معه وفيه .

* * *

وأنتقل معك إلى شعراء آخرين ممن وهبهم الله ملكات جليلة حقاً فأنفقوها فى التسول والهباء .

أنتقل بك إلى حبيب بن أوس الطائى وهو أبو تمام [١٨٠ ــ ٢٣١هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٤٣ م] وهو رجل نشأ نشأة متواضعة جداً ، فقد ولد بقرية من قرى الشام ، ثم عمل صبياً لحائك ، ثم انتقل إلى مصر حيث سقى الماء فى جامع الفسطاط ، وهو فى أثناء ذلك يدرس ويجود قريحته حتى ملك ناصية الشعر ، وتفتح عن ملكة شاعرية صافية ، حتى إذا اتصل بالخليفة المعتصم نجد هذا الرجل يتجلى عن شاعر فحل حقاً ، ولكنه يتنكر لأهله وأمته وأصله ، ويصبح شاعراً أرستقراطياً لا يقول الشعر إلا فى الملوك والسروات ، ولا يقنع إلا بألوف الدنانير ، ويظهر للناس فى أبهة الأمراء ، فكان له كما يقول ابن رشيق فى كتاب « العمدة » قهارمة أى خدم وكتاب ، وهو فى معظم شعره يغادر الواقع الإنسانى والصدق الشاعرى ، ويسرف فى مبالغات ذات وقع جميل ، ولكنها فى النهاية لا شىء ، واسمع إليه يقول فى مدح المعتصم :

هو البحر من أى النواحى أتيته ... فلجَّته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها ، فليتق الله سائله

وهذا المعتصم الذى يسرف أبو تمام فى مدحه هذا الإسراف ، كان طاغية فظاً غليظاً تنكَّر للعرب وأسقطهم من الديوان وأخرجهم من ميدان الحرب والسياسة جملة ، وكان جاهلاً غشوماً سيطر عليه قاضٍ جافى القلب يضرب الناس ويأمر بقتلهم ويستبيح

دماءهم عقاباً على إنكار بدعة سخيفة لا معنى لها ولا متحصل وراءها هى بدعة القول بخلق القرآن ، وأنت فى الواقع لا تدرى ما يراد بها ، فإن أتقياء المسلمين لا يدخلون فى سخافات وألاعيب ذهنية ، ولا يرضون أن يكون القرآن ـ معجزة الإسلام الكبرى ـ موضع سفسطة ، فإن القرآن كلام الله سبحانه خلقه عندما أراد ونزله على نبيه بالحق عندما شاء ، فما معنى الجدل فى شأنه وامتحان الناس فى القول بأنه مخلوق أو قديم ؟ ..

ولكن فرقة من فرق المعتزلة على رأسها أحمد بن أبى دواد خرجت على الناس بهذه البدعة وملكت أذن الخليفة المأمون ، واستخدمت السلطان فجعلت من مسألة فكرية محنة إسلامية ضرب الفقهاء فيها وسجنوا وعذبوا ، وجاء المعتصم وهو جاهل جلف من أم تركية ، فأسرف فى هذا الطريق ، وهذا هو المعتصم الذى يقول فيه أبو تمام هذا الهراء ، وأنا هنا أتناول المعتصم من زاوية التاريخ الفكرى ، وأترك جانباً ناحيته السياسية والعسكرية ، فقد كان المعتصم من أكابر خلفاء الإسلام نجدة وشهامة وفروسية .

وهل هناك أنكر من قول أبى تمام فى مدح المعتصم :

سور القرآن الغر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

فهل يسمح لرجل فكر يحترم نفسه أن يزل هذه الزلة ويقول : إن سور القرآن أنزلت فى طواغيت من أمثال أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور ومحمد الهادى وأبى إسحاق المعتصم ؟

ومع ذلك فالرجل يا أخى شاعر عظيم الشاعرية وأنت قطعاً تذكر بيتيه :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وهل هناك أرق وأبدع من قوله فى الربيع :

دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هى منظر

وقبل أن أستطرد فى ذكر أولئك الشعـراء والمفكرين أحب أن أعلن لك سبب نفورى منهم ونقدى الشديد لهم ، فهؤلاء النـاس تركوا الأمة فى أشقى حال ، وقصروا فنهم على الملوك والقصور وأصحـابها ، وباعوا رسالـة الشاعر وأمانـة الفكر واشتروا بها الذهب واللازورد والعسجد واللجيـن ، وشغلوا أنفسهم بطلب المال .

وسـآتيك ـــ فى الختام ـــ بصفحـات من تـاريخ الطبرى لنرى كيـف كان النـاس يعيشون ويعـانون من الظلم والقهر والحرمـان فى ذلك العصر ، وأصحابنـا أهل الفكر غارقون فى الخمر والنعيم والمال والجنس والشذوذ .

والفقرات التالية تصور حالة بغـداد وأهلها فى عصر الرشيد وابنيه الأمين والمأمون من بعده ، وما أصاب الناس من فتنتهما من شر بالغ .

قال أبـو جعفر الطبرى يصور لنا ظلم القضـاة فى عصر المهدى وسرعتهم فى الحكم على النـاس دون تحقيق سليم : لما حبس المهدى عبـد الله بن مـروان [بن محمد آخـر خلفاء بنى أمية] احتيل عليه ، فجاء عمرو بـن سهلة الأشعرى ، فادعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، فقدمه إلى عافية القاضى [وعافية كان اسمه] ، فتوجه عليه الحكم أن يقاد به [أى يعدم عقاباً له على القتل] ، وأقام عليه البينة ، فلما كاد الحكم يبرم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلى إلى عافية القاضـى يتخطى رقاب الناس حتى صار إليه فقال : يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، كذب والله ! ما قتل أباه غيرى ، أنا قتلته بأمر مروان ، وعبـد الله بن مروان من دمه برىء ، فزالت عـن عبد الله بن مروان ولم يعرض المهدى لعبد العزيز بن مسلم ؛ لأنه قتله بأمر مروان ..

[الطبرى ٨ / ١٣٦]

وقد تسرع القاضى فى الحكـم على عبد الله بن مروان ؛ لأنه كـان يعلم أن المهدى ـ شأنه فى ذلك شأن بنى العباس جميعاً ـ يريد أن يقتل كل أموى على الأرض بأى سبيل ، فتقرب إلى السلطـان بدم مسلم بـرىء ، وكان عبد اللـه بن مروان رجـلاً صالحاً ، ومع ثبوت براءته فقد قتله المهدى بعد ذلك ظلماً بتهمة أخرى .

وقال الطبرى فى حوادث سنـة ٢٠١ هـ . يصـف أحوال أهل بغـداد مع اللصوص وقطاع الطرق وقيام الناس عليهم : « كـان السبب فى ذلك أن فساق الحربية [أى فساق

حى الحربية ببغداد ومعظمهم من الجند المرتزقة] والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية فى الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه ، فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى ، فيكاثرون أهلها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ، لا سلطان يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ، لأن السلطان كان يعتز بهم [يعتز باللصوص] ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يجبون المارة فى الطريق وفى السفن وعلى الظهر ، ويخفرون البساتين [أى يفرضون إتاوة خفارة على أصحاب البساتين] ويقطعون الطريق علانية ، ولا أحد يقدر عليهم ، وكان الناس منهم فى بلاء عظيم .

وكان آخر أمرهم أن خرجوا إلى قطربل ، فانتهبوها علانية ، وأخذوا المتاع والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد ، وجعلوا يبيعونها علانية ، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم عليهم [مساعدتهم] ، ولم يرد عليهم شيئاً مما أخذ منهم ، وذلك آخر شعبان » .

* * *

مَعَ الْخَلِيفَةِ الْمَلِكِ اخْتَلَّ مِيزَانُ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ

كان البحترى [أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ٢٠٦ ــ ٢٨٤ هـ / ٨٢١ ـ ٨٩٧ م] صنو أبى تمام فى الفصاحة والشاعرية والغنى والتسول بالشعر ، وكان تلميذه ومضاهيه ، وقد عاش الاثنان فى عصر أسود كله أزمات وحروب وثورات وانقلابات وجرائم وتعاسة ، وقد عمت التعاسة فى هذا العصر ـ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ــ كل الناس من الخليفة إلى الوزير إلى الخفير وساكن الريف وساكن المدينة ، لأن الظلم إذا بدأ على يد طاغية جبار مثل معاوية بن أبى سفيان أو أبى العباس السفاح يكون فى بدايته لعبة مسلية يتصور الظالم أنه وحده مالك سرها والمستمتع بخيرها ، ولكنه إذا استمر زاد وعم حتى شمل الجميع ؛ لأنه كالنار إذا شبت ووجدت من يؤجج لهيبها استشرت وأتت على كل شىء .

وأنت تقرأ أخبار هذا القرن الثالث فى مطول مثل تاريخ الطبرى فتشعر كأنك تختنق لكثرة الظلم وسفك الدماء ومصارع الناس وبحر الدماء ، ثم تقرؤها فى مختصر مثل تاريخ ابن الأثير فيزداد ضيقك لأن ابن الأثير مؤرخ صحفى النزعة ، فهو يشغف بالأخبار الفاجعة والنكبات الأليمة ، ويسردها عليك فى عجلة تدور معها رأسك ، وقد توالى على عرش بنى العباس فى حياة البحترى تسعة خلفاء هم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد ، وبعض هؤلاء حكم فوق العامين الهجريين بقليل ، وأطولهم حكماً المعتصم ، فقد حكم حوالى إحدى عشرة سنة هجرية ، وقد شهدت هذه الفترة حادثين سياسيين على أكبر جانب من الخطورة :

الأول : هو استيلاء الجند التركى على الخلافة وتصرفهم فى الخلفاء حتى صارت دولة الخلافة كلها بكل ما فيها ومن فيها فريسة بين أيديهم ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والثانى : هو محاولة الخليفة المتوكل [٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ ــ ٨٦١ م] القضاء على سلطان الأتراك والعصف بهم وتحرير الدولة من سلطانهم ، ولم يكن ذلك شهامة منه وعزة أو غضباً للعروبة وأهلها أو لبنى العباس واسمهم ، بل كان طمعاً فى

الأموال التى ظن أنها بأيديهم والخيرات التى كانوا يستمتعون بها ، ولكنه لم يكن رجل هذا الموقف أو القادر على القيام به ، فقد كان رجلاً سكيراً فاسداً منحط الخلق صاحب نسوان وغلمان وطعام ، وقد دبر مؤامرته أسوأ تدبير وأقله حزماً وبعد نظر ، وبلغ من سفاهة عقله وانحطاط خلقه أنه فى الليلة التى قتلوه فيها كان قد شرب أربعة عشر رطلاً من النبيذ ــ قل ١٤ زجاجة ! ــ وكان قد أمر أصحابه بأن ينبهوه إذا هو شرب سبعة أرطال أى أكواب كبيرة ، ويخرجوا الخدم حتى يستطيع رجاله القيام بالضربة الحاسمة ؛ فلا هو تنبه ولا رجاله نبهوه ، وكان التعيس مخاصماً ابنه أحمد المنتصر يخافه ويهينه ويعتزم تقديم ابنه المعتز عليه فى ولاية عهده ، وعرف ذلك المنتصر فاتفق مع الأتراك على قتل أبيه .

وكان المتوكل قد قرر مع أصحابه ــ وأهمهم وزيره الفتح بن خاقان ـ أن تكون الوقعة بالأتراك يوم الخميس الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ .

ومن يقرأ هذا يظن أن المتوكل لا بد قد أحكم أمره وتربص بجنده ورجاله قبل الوقعة بأسابيع بل بشهور ، ولكن هذا الأحمق جلس يأكل يوم الثلاثاء بالليل وهو على حال من الاستهتار وقصر النظر تدعو إلى العجب ، وأتى بابنه المنتصر فجعل يهينه ويسقيه على رغمه ويصفعه ، بل بلغ الأمر به أن طلب إلى وزيره الفتح بن خاقان أن يقوم فيصفع ابنه على قفاه ! ثم أعلن خلعه من ولاية العهد ، قال الطبرى : [٩ / ٢٢٥ وما بعدها] فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقى كان أسهل علىَّ مما تفعله بى ، فقال : اسقوه ! ثم أمر بالعشاء فأحضر ، وذلك فى جوف الليل فخرج المنتصر من عنده ، وأمر بناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه ، فلما خرج وضعت المائدة بين يدى المتوكل ، وجعل يأكل ويلقم وهو سكران .

ثم خرج المنتصر [ابن الخليفة] إلى حجرته وقد أحكم أمره مع الأتراك على قتل أبيه الليلة وهو على الطعام سكران ، فإذا أقبل المتوكل على الطعام والشراب قام كبير المتآمرين وهو بغا الصغير بإخراج من فى المجلس وأغلق الأبواب ثم أدخل على المتوكل الرجال الموكلين بقتله وهم يغلون وبغا وموسى بن بغا وهارون بن صوراتكين ، وكلهم أتراك ، فضربه يغلون بالسيف على كتفه فكسرها وقطع أذنه ، ثم بدأت المذبحة فقتل الخليفة ووزيره ، وذهب القتلة إلى المنتصر ؛ فهنأوه بالنجاح والخلافة ، ففرح بها

واستبشر وزعم للناس بعد ذلك أن الفتح بن خاقان الوزير قتل أباه فقتله به .. !

هذا الحادث الجلل الرهيب وقع وشاعر العصر البحترى موجود ، وكان شاعر الخليفة والقصر ، فلم يشر إليه ببيت شعر أو كلمة ، ويزعم بعض الناس أنه حضر مشهد القتل ، ولكن ذلك غير صحيح ، ولكن الذى حدث هو أن البحترى استمر فى مديحه ، فمدح الابن القاتل كما كان يمدح الأب القتيل .

وكان البحترى ـــ إذ ذاك ـ فى عنفوان صـــيته وقد جمع مالاً وفيراً وأصبح من الأثرياء ، ولو كان رجل غيره شاعرى النفس والإحساس لزهدته هذه الحادثة فى الدنيا وما فيها ، ولعاد بعد ذلك إلى بلده منبج ـ إلى شرقى حلب ـ وتفرغ فيها لشعره ، ولو أنه كان عربياً عزيز النفس لأغضبه ما حدث ولأسف على ضياع الفرصة فى التخلص من الأتراك الذين أذلوا العرب خاصة ، ولكن البحترى كان عربياً زائفاً وإن كان من طيىء ، وكان غير عزيز النفس ، فلا هو ريع لما حدث ولا غضب له ولا تأثر به ، بل أسرف فى خدمة السادة الجدد واستمر فى مدحهم كأن هذا الشعر لا يخرج من عقله وقلبه بل من جيبه .

وتسأل الآن : ما الذى جعل أولئك الناس على تلك الحالة من موت الضمير وهوان النفس وجحود القلب فلا شىء يحكمهم غير المال والمتعة ؟ .. والبحترى هذا الذى كان يقول شعراً بديعاً هو البلاغة بعينها كان رجلاً متدهورًا منحرفاً حتى لقد اشتهر بغلام له يسمى نسيماً كان لا يفارقه يوماً ، ثم باعه لصاحب له يسمى أبا الفضل بألفى دينار ، ثم تحسر عليه بعد ذلك فجعل يرجو صاحبه أن يرد عليه الغلام ، ثم قال شعراً مخجلا يستعطف أبا الفضل ، فأبى أبو الفضل أن يرد الغلام إلا فى مقابل كل مال البحترى ، فرضى البحترى وكتب على نفسه كتاباً بذلك لشدة ولعه بالغلام ، واسترده فعلاً ، ثم عطف عليه أبو الفضل فأعفاه من وثيقة التنازل عن أملاكه ، ففرح الشاعر بذلك ولم يخجل ، مع أن الرجل وجه إليه كلاماً مهيناً وحذره من هجاء الأحرار وقال : فإن لهم مكايد يضل فيها هجوك ومدحك .. [ابن المعتز : طبقات الشعراء من ٣٩٢ ـ ٣٩٤] .

* * *

والجواب على ذلك هو أن أولئك الشعراء كانوا رغم إتقانهم صنعة الشعر ، بعيدين عن حقيقة الشاعرية وصدق الإلهام ؛ لأن الشاعر الصادق ـ مثله فى ذلك مثل كل صاحب فن أو علم صادق ـ ينبغى أن يخرج من صفوف الناس ويظل متصلاً بهم مشاركًا إياهم الإحساس والعاطفة ، فيكون ما يصدر عنه من صور الفن كالفاكهة الطيبة التى تخرج من أرضها ، وأنت إذا تأملت الفاكهة ، أو ما يخرج من نبات الأرض الطيبة ، لم تجده دائماً حلو المذاق أو أنيق المنظر ، إنما هو طبيعى صادق ، وهذا حسبه ، وهذا هو المنبع الوحيد الصادق للفن الحقيقى : أن يكون صادقاً طبيعياً غير مفتعل ، وهكذا كان الشعر عند الجاهليين ، كان على رغم حوشية ألفاظه أحياناً ، شعراً سليماً صادقاً تقرؤه فتشعر فيه بأن الشاعر صادق مع نفسه صادق مع قومه ، حتى إذا بالغ فى كلامه تجد أن هذه المبالغة جزء مما يريد الشاعر أن يقوله وما يريد قومه أن يسمعوا منه ، وعمرو بن كلثوم لم يكن كاذباً عندما قال :

إذا بلغ الوليد لنا فطاماً تخر له الجبابر ساجدينا

لأن الذى يريد أن يقوله هذا الشاعر هو أنه من قوم أعزة مرهوبين ، وهو إذ يقول ذلك يريد أن يخيف القبائل الأخرى ويردها عن العدوان على قبيلته ، لأنهم كانوا يعيشون فى جزيرة قاسية قليلة الخير . والحياة فيها صراع بقاء ، ولا دولة هناك تحمى ولا قانون مفروض ، إنما كل قبيل يعيش وينجو من الهلاك على قدر قدرته فى الثبات والبقاء ، وللبقاء أسلحته ومنها الشعر الذى يؤكد قوة القبيلة ويرد عنها طمع الطامعين ، والناس كانوا لذلك فى أمن نسبى ، وأنت تقرأ أخبار حرب البسوس التى يقال : إنها استمرت أربعين سنة ، وتحصى القتلى والجرحى فيها فإذا هم لا يزيدون على أصابع اليدين ، ثم يتدخل أحد الحكام أو الحكماء ويصلح ذات البين وتسوى الديات ويسكن الحال ، فاذكر إلى جانب ذلك معركة مرج راهط التى دارت بين الأمويين واليمنيين فى جانب والزبيريين والقيسيين فى جانب آخر ، تجد القتلى ستة آلاف فى يوم واحد ، ويدركك العجب ، ولا داعى للعجب هنا ، فإن حرب البسوس كانت حرباً طبيعية مشروعة للبقاء ، فهى طبيعية فى أسبابها ونوع الحرب فيها ونتائجها . أما مرج راهط فكانت حرباً سياسية ساق إليها الطمع ، فالأمويون فيها طامعون مثل الزبيريين ، وكلاهما كان يتصارع للفوز بسيادة الأمة وانتهاب خيراتها ، ولو أن عبد الله بن الزبير

انتصر فيها لما كان خيراً من الأمويين ، ولما قل ظلمه عن ظلمهم ، وحرب المسلم مع المسلم على السلطان وسيادة الناس حرب ظالمة مهما كانت غايات المتحاربين فيها ، وهذه الأمة ليست غنيمة حتى يتحارب الطامعون على سيادتها ، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال فى مثل هذه الحرب : القاتل والمقتول فى النار .

ذلك أن أمتنا هذه قدر الله لها أن تكون أمة حق وأخوة ، والأمر فيها شورى والجدال بالحسنى بل بالتى هى أحسن ، ولا يستعمل السلاح إلا خارج نطاق الأمة فى حرب أعدائها ، ما عدا حالة إقامة القانون وتطبيق الشرع ، ولقد أقام الرسول أمة المدينة وظل فيها عشر سنوات وبضعة أشهر فلم تقم بداخلها فتنة ، وكان المنافقون وأعداء الأمة كثيرين يعرفهم رسول الله ﷺ وأصحابه بأعيانهم .

ولكن الرسول كان يجادلهم بالحسنى ويطيل لهم فى حبال الصبر لعل الله يهديهم . وبهذا يقول القرآن الكريم ، ولقد رفض أكثر من مرة أن يعمد إلى عقاب المنافقين بالقتل وما إليه ، وكان يقول دائماً : إنه لا يريد أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه .

ولقد سار أبو بكر وعمر على طريقة الرسول ، وأكبر دليل على ذلك هى حروب الردة ، فما كان كل من قام على أمة الإسلام فيها مرتداً عن الدين ، بل الذى حدث هو أن الكثيرين رفضوا إخراج الصدقات ظناً منهم أنها إتاوات تؤدى لمحمد ﷺ ومحمد مات فلا صدقات ، ولكن أبا بكر رأى أن إخراج الصدقات وأداء حق الجماعة منها ـ وهو جد قليل ـ رمز على وحدة الأمة ، أى برهان على بقاء الناس داخل الجماعة ، والجماعة لا بد أن تكون متحدة ؛ لأن اتحادها قوة لها . وقوة للإيمان وهو قاعدتها ومحورها ، وإذا نحن قرأنا كتب الرسول ﷺ إلى بعض الرؤساء فى جزيرة العرب وجدناه لا يرى مانعاً من أن ينفرد قوم بناحيتهم يحكمهم من يرضونه من جماعتهم ما داموا باقين بجملتهم داخل أمة الإسلام يدينون بدينها ويطبقون شريعتها ويشاركون فى جهادها فى سبيل نشر الدعوة خارج نطاق الأمة ، وأبو بكر نفسه عندما أرسل الجيوش على من اعتبرهم مرتدين رضى من معظمهم بالعودة إلى الجماعة وإخراج الصدقات وأداء حق الأمة منها والمشاركة بمن استطاعوا فى جيوش الفتوح ، ولم يصر أبو بكر على القضاء إلا على المتنبئين ؛ لأنهم كانوا خارجين فعلاً على الجماعة ودينها ، بل من المتنبئين من رجع عن دعوته وتاب وعاد إلى أمة الإسلام ، فقبل منه أبو بكر ذلك ، مثل طليحة بن خويلد الأسدى الذى أصبح بعد توبته من رجال الفتوح هو وقومه من طيىء وأسد .

وأبو بكر كان خليفة رسول الله ، ولكنه لم يكن ملكاً ولا صاحب سلطان مطلق على الناس ، إنما هـو كان رمـز وحدة الأمـة ، ولهذا فإن ذلك الرجـل العظيم كان يقـود أمة الإسلام برضا منها ، وهـو يقيم فى داره التى هى ملكه قبل الخلافة ولا يرتزق من بيت مال المسلمين إلا أربعة آلاف درهم زادوها له إلى ستـة آلاف ، وظل الرجل طوال خلافته يلبس رداءه المتواضع ويأكل ما تيسر له من الطعـام دون سيادة ولا سلطان على أحد ، وكانت الأمـة راضية عنه وهو راض عنهـا ، وعلى نفس الطريق سار عمر ، وطـريقته فى تسيير أمور الأمة معروفة ، فهو ليس رئيسـاً إنما هو رئيس مجلس شورى الأمة ، وما تقرره الأمة أقره وما لم تقره تركه ، وعندما استبد بأمره فى مسألة الأرزاق وقسمها عاد عندمـا تبين له أن طريقتـه ليست المثلى عن رأيه . وقرر الـرجوع إلى طريقـة أبى بكر فى التسويـة بين الناس فى الأرزاق دون تفضيل أحد على أحـد ، وكان أبو بكر يقـول : هذا معاش والتسوية فيه أحسن ، وكان يسوى بين الناس جميعاً فى العطاء .

الصحابى الكبير مثل أى فرد من أفراد الجماعة ، والعبد كالحر والأمة كالحرة ، أما عمر فقد جعل الناس مراتب بحسب السابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله ، ثم بدا له أن ذلك ليس بعدل فقال كلمته المشهورة : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت غير الذى فعلت !

ولكن عمر لم يعـش ليستقبل من أمره ما استـدبر ، وجـاء عثمان والأمة فى بـداية تجربتها وعنفوان قوتها ، والفتوح على قـدم وساق ، وأمة الإسلام تتوسع فى كل اتجاه ، وشعوب جديدة تـدخل أمة الإسلام بشخصياتها وحضاراتها وتقاليـدها ، تدخل وهى متطلعة إلى عدل الإسلام ومسـاواته ومكارم أخلاقه ، والعرب الذين يقـومون بالفتوح أنفسهم كـانوا معظمهم جـديدين فى الإسـلام لم يعرفـوا منه إلا الشهـادتين وظواهـر العبـادات ، وجموع تميـم وشيبـان وأسـد وطيىء والأزد واليمن كـانت تتـدفق على المعسكرات وتتجه إلى ميـادين الحروب بحماسة شديدة وتطلع كبير إلى مغـانم الفتوح وخيراتها ، وعمر كان رجـلاً شديد البأس ، يعرف كيف يقبض على زمـام هذه الجموع ويوجهها ، وكـانت له معرفـة بالرجال وكانـت له رهبة فى قلوبهم زادهـا زهده وإيمانه وتفانيه ، فقد كان الرجل يقيم فى المدينة ولكنه بعقله وقلبه كان يعيش مع الأمة المجاهدة الفاتحة .

كان يطلب إلى كل قائد أن يصف له الميدان الذى يحارب فيه كأنه يراه حتى يكون معه بنفسه وروحه ، وكان لا يطلب لنفسه شيئاً ولهذا كان عادلاً فى حكمه كله ، وكان يعرف صحابة رسول الله ويشاورهم ولا يصدر إلا عن رأيهم ؛ لأنه صاحب رسول الله ورأى كيف كان احترام الرسول للرجال وأقدار الرجال ، وكان عمر يحتاج إلى عشر سنوات أخرى على الأقل لكى ينظر فى نظام هذه الأمة التى تغير شكلها تماماً نتيجة للفتوح ، وكان التوسع سريعاً وغير منتظر ، وكل أمة تدخل جماعة الإسلام بمشاكلها التى تراكمت مع قرون الظلم والاستبداد ، والمشاكل تتطلب حلولاً ، والذى فات عمر هو أن ينظم أمر الشورى ويربط بينها وبين الإدارة ، لأن الإدارة السليمة هى أساس نجاح أى منشأة ينشئها البشر ، وإدارة أمة الإسلام كما كانت أيام الرسول ﷺ تقوم على الشورى وإشراك الأمة كلها فى المسئولية ، وسورة براءة وهى سورة حاسمة فى هذا الموضوع ، كان لا بد أن تدرس درساً عميقاً . ومن أهم الحقائق التى نصت عليها هذه السورة أن المسلمين جميعاً مسئولون بالتضامن عن مصير أمتهم ، وكلهم محاربون مكلفون بالجهاد ومطالبون بإنفاق أنفسهم وما ملكت أيمانهم فى سبيل هذه الأمة ؛ لكى تسعد الأمة ، ويسعد كل من فيها ، فليس فى الإسلام حاكمون ومحكومون أو محاربون وغير محاربين ، فالأمة كلها حاكمة أمرها والشورى أساس قوتها وسلامتها والشورى مسألة تحتاج إلى تنظيم وتقنين ، وعمر كان يستشير ، ولكنه كان ينبغى أن يقرر من يستشير وكيف يستشير ، وأظن أن هذا كان فى ذهن عمر عندما قال : إنه لو ابتدأ أمره من جديد لسار على غير النظام الذى سار عليه ، والدليل على ذلك أنه عندما طعن واقترب من الموت حدد رجال الشورى ورسم لهم كيف يجتمعون ، ولم يدر بخلد عمر أن تكون مهمة أهل الشورى هى مجرد اختيار خليفة جديد وتسليمه الأمور ، ولكن الذى كان فى ذهنه أن هذه الهيئة تستمر كما هى تشترك مع الخليفة الجديد فى تدبير الأمور ، فيكون الخليفة رئيس مجلس الشورى ومنفذ قراراته .

وعبد الرحمن بن عوف كان مخطئاً عندما تصور أن مهمة أهل الشورى هى اختيار خليفة جديد وإلزامه بالسير على طريقة عمر ، لأن عمر نفسه كان على وشك أن يغير نظامه كله . والدولة كلها فى شكلها الجديد كانت فى حاجة إلى إعادة تنظيم شاملة ، وقد قضى الرومان ثلاثة قرون يضعون نظام دولتهم ويناقشون كل شىء فى مجلس

الشيوخ ، وقوة الدولة الرومانية أتت من أن أمورها فى عصور ازدهارها وتوسعها كانت دائماً فى أيدى مجلس الشيوخ وجماعة الفرسان المقاتلين أو الأكوستري Questri التى كانت تقدم للدولةرجال الحرب والإدارة تحت إشراف مجلس الشيوخ .

شيء شبيه بهذا كنا بحاجة إليه لكى نستطيع تسيير أمور هذه الدولة الواسعة ، والقرآن نفسه ينص على ذلك ، ففى سورة آل عمران مجموعة من الآيات لو قرأناها معاً لوضعنا أيدينا على شخصية أمة الإسلام ووظيفتها وطريقة سياسة أمورها :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا ولاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البيِّنَاتُ وأولئِكَ لَهُمْ عذابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

[آل عمران : ٣ /١٠٣ ـ ١٠٥]

فتأمل والله هذه الآيات وإحكام وضعها وترابطها .. تجد فيها حكمة النظام الذى كان ينبغى أن تكون عليه الأمة الإسلامية ، وماذا كان قبلها ، وما الذى يقيم أمرها ويفلح به أهلها ، وما الذى يفسد أمرها ويضيع رسالتها ويجعل أهلها فى عذاب أليم ، وأوجز لك حكمة هذه الآيات فيما يلى :

١ ـ أن المسلمين ينبغى أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا .

٢ ـ أن المسلمين ينبغى أن يذكروا أنهم كانوا قبل الإسلام أعداء .

٣ ـ والإسلام جاء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً وينبغى أن يظلوا إخواناً .

٤ ـ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها .

٥ ـ والإنقاذ هنا أتى من اعتصام المسلمين جميعاً بحبل الله ، ولا ينبغى أن يتفرقوا أبداً .

٦ ـ وهذه هى حكمة الإسلام الكبرى بيَّنهـا الله لأمة الإسلام لعلها تهتدى وبدونها لا تهتدى .

٧ ـ ولكى يظلـوا فى طريق الفلاح ، فـلا بد أن تكون فيهم جماعة تـدعو إلى الخير ، والخير هو كل ما فيه صلاح الإنسان والجماعة .

وهذه الأمة أى الجماعـــة التى لا بد أن تكون فى أمة الإسـلام عليها أن تأمر بالمعـروف ، والمعروف هـو ما يتفق عليه النـاس ويعترفون بـه من الأخلاق والسلوك والحقوق والواجبات .

وهذه الجماعة نفسها ينبغى أن تنهى عن المنكـر ، والمنكر هو كل ما يتعارض مع قواعد الدين ومكارم الأخلاق ، فهـذا كله منكر ؛ لأن الله سبحانه يستنكره والأمة ـ أمة الله التى تعتصم بحبله ـ تنكـره ولا ترضاه وترفضه جماعة ، لأن الله أمر أهل الأمة بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً .

٨ ـ هـذه الأمة أو الجماعة التى تقـوم بهذه الواجبـات فى أمة الإسلام هى وحـدها الجماعة التى تفلح فى الحفـاظ على وحدة الأمة وتسييرها فى الطـريق السوى معتصمة بحبل الله .

٩ ـ ولا ينبغى لأمة الإسلام أن تكون كالذين كـانوا من قبلها ، أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد أن جاءتهم البينات .

١٠ ـ وأولئك الذين يتفرقون ويختلفون من بعد ما جاءتهم البينات لهم عذاب أليم فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

والله سبحانه عندما يقول : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾ .. فهذا فعل أمر لا بد أن تنفذه الأمة ولا بد أن تنظم طريقة تنفيذه . فقد قال الله سبحانه : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ . فجاء رسول الله وبيَّـن لنا كيف نقيم الصلاة. وقال الله ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ .. ورسول الله دلنا على طريقـة تنفيذ هـذا الأمر وتطبيقه ، فهـو ﷺ لم يكن حاكماً يأمـر وينهى إنما كان كما وصفه الله فى كتابه العزيز : ﴿ **يَا أَيُّـهَا النبى إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـراً وَنَذِيرًا * وداعيـاً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِـــرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّـرِ الْمُؤْمِنِينَ بِـأَنَّ لَـهُمْ مِنَ اللهِ فَضْـلاً كَـبِيراً** ﴾ .

[الأحزاب : ٣٣/ ٤٥ ـ ٤٧]

وهذه هى وظيفة النبى : أنه شاهد أمته أى نموذجها ومثالها الذى يحتذى به فى خلقه وسلوكه ، ومبشر بأمة الله والخير والإخاء والمساواة ، ونذير لهم بما يصيبهم من الشر إذا انحرفت الأمة عن طريق الله ورسوله ، وهو داع إلى سبيل الله بإذن الله ، وهو بعد ذلك كله السراج المنير أى النور الذى تسير الأمة على هداه .

ولم يقل الله فى آية واحدة من الآيات : إن هذه الأمة ينبغى أن يكون لها بعد الرسول إمام واحد أو رئيس واحد يسيِّر أمورها كما يشاء ، لأن إمام هذه الأمة هو القرآن الكريم ، وإذا كان هناك إمام للصلاة فهو يؤم الصلاة فحسب . والإمامة بمعنى رياسة الأمة وتسيير أمورها والتحكم فيها أمر لا نجد له أثرًا فى القرآن أو السنة ، فمن أين أتوا بهذا المعنى ؟ إن الإمام لا يكون إلا فى شئون الدين ومن أهمها الصلاة ، هكذا كان إبراهيم عليه السلام إمامًا .

فرياسة الرجل المفرد على هذه الأمة أياً كان وضعه : خليفة أو إمامًا أو أميرًا للمؤمنين ليست إسلامية بالمعنى الذى أعطيناه إياها ، فالإمام إمام الصلاة وهو يؤم المصلين لينظم أمر صلاة الجماعة . والخليفة هو خليفة رسول الله فى السير مع الأمة فى طريق الهداية الذى بيَّنه القرآن ووضحته السنة ـ ورسول الله لم يكن حاكمًا بأمره حتى يكون خليفته حاكمًا بأمره فى أمة الإسلام . إنما أمورها تدبرها تلك الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ورسول الله أنشأ هذه الجماعة من خيرة أصحابه وشاورهم فى الأمور كلها ما عدا مسائل الدين وخاصة العبادات والأحكام الواضحة الصريحة ، ورسول الله لم يكن أمير المؤمنين . وأمير المؤمنين فى أيامه ـ صلوات الله عليه ـ كان رئيس أى جماعة تخرج فى مهمة حربية ، وأول أمير للمؤمنين كان عبد الله بن جحش عندما أرسله الرسول فى سرية إلى قبائل جهينة ، وهذه السرية غير معروفة عند الكثيرين من مؤرخى السيرة ، ولكن لا نزاع عندهم فى أن عبد الله بن جحش كان أول من لقبه الرسول بأمير المؤمنين ، وهى إمارة تنتهى بنهاية المهمة التى كلف بها الصحابى ، وكل القادة الذين وجههم رسول الله ﷺ فى سراياه كانوا أمراء مؤمنين . وليس فى القرآن آية واحدة تقول : إن رسول الله كان أمير المؤمنين .

المسلمون أخطأوا خطأ جوهريًا عندما لقبوا عمر بأمير المؤمنين ، لأنهم أوجدوا بذلك صفة غير إسلامية لخليفة رسول الله فى تسيير أمور الأمة بحسب ما ترتئيه

الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لكى تسير الأمة فى طريق النور ، على هدى من السراج المنير ، وعمر بن الخطاب لم يتأثر باللقب ، ولكن هذا اللقب أصبح أهم شىء عند الخلفاء من بعده .

وكان جديرًا بالفقهاء أن ينظروا فى آيات سورة آل عمران التى ذكرناها ليستخرجوا منها أسس تنظيم جماعة الإسلام ، ولينظروا كيف كون الرسول جماعة الشورى من حوله ، وكيف كان يستشير ، وكيف كان يتخذ القرار على ضوء القرآن وما تقرره الشورى .

هذا كله كان جديرًا بأن يستلفت انتباه أهل الفقه بدلاً من التعلق بالإمامة والمجادلة فيمن يستحقها ومن لا يستحقها ، لأن الإمامة نفسها ثانوية ، أما الأولوية فتكون للشورى وجماعة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا بد أن يكونوا مختارين من بين رجال الأمة مرضيًا عنهم منها كما رضى رسول الله عن أهل شوراه . ألم يقل عمر بن الخطاب عندما اختار رجال الشورى : إنه اختارهم من بين من توفى رسول الله وهو عنهم راض ؟

ذلك هو أساس البلاء وسبب الانحراف الخطير والانكسار الهائل فى سيرة أمة الإسلام ، لأن الإمامة أو الخلافة بصورتها التى تعارفوا عليها هى ـ فى الحقيقة ـ ملك وسلطان مطلق ، ومن هنا بداية الضياع .

***

عِلْمُ الكَلَامِ .. وَالطَّرِيقُ المَسْدُود

القول السائر الذى يجتمع عليه الناس عندنا هو أن الإسلام دين ودولة ، والحقيقة التى انتهينا إليها آخر الفصل السابق هو أن الإسلام دين وأمة ، ولُبَابُ الدين فى الإسلام هو التوحيد ، فإنك إذا آمنت بالله الواحد أمنت الزلل والانحراف فى شئون العقيدة ، فالله الواحد خلقك كما خلق الكون كله ، وإليه ترجع ، فيكون حسابك عن أعمالك على أساس ما بيَّن سبحانه فى القرآن ، والعلاقة بينك وبين الله سبحانه مباشرة ، وأنت إذ تعامل الله أو الناس فعلى أساس ما رسمَ لك ، وهو مطلع على الأفئدة ، فلا سبيل إلى خداعه أو خداع النفس ، والعبادات كلها طريق إلى الله ، فأنت إذ تصلى وتصوم وتزكى وتحج وتلتزم ما أمرك به أو نهاك عنه فى القرآن ، فإن الطريق بينك وبين الله يظل مفتوحًا ، ويظل العمار بينك وبينه قائماً . . والأمة هى جماعة المسلمين المؤمنين ومن دخل معهم وشاركهم الوطن وعاهدهم ووفى بعهده من أهل الكتاب أى أصحاب الديانات السماوية ، وهذه الأمة صاحبة الرأى فى كل ما يتعلق بمصالحها وحمايتها وأمنها ، وهى تتولى إدارة شئونها عن طريق جماعة تختارهم اختيارًا حرًّا على أساس الشورى ، وليس أيسر من تطبيق الشورى إذا كان الإنسان مؤمنًا حقًّا يعرف أنه يعامل الله فى كل ما يصدر عنه من تصرف ، وقد سارت أمور الأمة على أيام الرسول ﷺ على أساس الشورى ونجحت ، وعلى نفس الأساس سارت أيام أبى بكر وعمر ، فاطرد نجاح الأمة ، وما دام كل فرد من أفراد الأمة يعامل الله فى كل شىء ، فإن أى حفنة من المسلمين تختارهم الجماعة ترضى عنهم وتثق فيهم وتفوض إليهم الأمر ، يمكن أن تكون هى الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأى رجل من هذه الجماعة تختاره ليقوم بالتنفيذ فهو رئيس صالح للرياسة ، ما دامت تلك الرياسة محدودة بزمن محسوب يرجع الأمر بعده إلى الأمة ، فإما أذنت له فى الاستمرار .. وإما استبدلت به غيره ، وأبو بكر نفسه قال : إن الأمة ولته أمورها ولها الحق فى محاسبته وتقويمه .

وهذا يقتضى بداهة حق الأمة فى عزله واستبدال غيره به إذا اجتمع رأيها على ذلك . والأمة بطبعها لا تجمع على ضلالة كما قال الرسول ، لأن الله الواحد هو البداية والنهاية فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا ، والأمة هى البداية والنهاية فى أمور الدنيا ، وما دام كل

فرد من أفـراد الأمة يعامل الله سبحانه فى كـل معاملاته فهو آمن على أنـه فى جانب الله ، وباستثناء تطبيقات أحكام المعاملات والمواريث والجراحات والدماء فإن الأمر لا يحتاج إلا إلى فقيه عـارف بهذه الأحكام قادر على إصـدار الحكم بمقتضاهـا ، والأمة هى التى تقوم بـالتنفيذ بالوسـائل التى ترضاهـا ، وهناك دائمًا جماعة الخير والأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر تتولى عن الأمة أمور التشريع واتخاذ القرار والإشراف على التنفيذ وكل ما يتعلق بالمصالح العامة .

أما فكرة الدولة بمعنى السلطـة الحاكمة التى تملك كل السلطات فهى فى صميمها غير إسلامية ، لأنها تنقل سلطـة الأمة إلى جماعة معينة هى الدولة أى صـاحبة الدور ، وهذه الـدولة تدول أى تزول ، ومـا دامت معرضة للزوال فإن أصحـابها يجتهدون فى القبض على زمـام الأمور للبقـاء فى مناصبهم ، وهـذا فى ذاته يتضمن القهـر والتسلط ، ويؤدى حتمًا إلى وجود طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، ورئيس هذه الطبقة الحاكمة مهما سميناه إمامًا أو خليفة أو أميرًا للمؤمنين فهو ملك ، وإذا لم يبدأ ملكًا فسينتهى قطعًا إلى أن يكون ملكًا ، وستنزع به نفسه إلى تـوريث ابنه ملكه وسيضطر إلى استعمال الحيلة والقوة ليصل إلى ذلـك ، وهنا ومـا دام قد تولى أمـر الأمة ملك مستبـد بأمره من دون الناس .. يسير شئونها على هواه ، فقد تلاشت الحكمة من قيام أمة الإسلام ، وأصبحت دولة استبـدادية لا تختلف عن الـدول التى قام الإسلام لإزالتهـا وإعادة الأمـر إلى أمة الإيمان والخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

وإذا نحن نظرنـا فيما يسمى بالفكـر السياسى الإسـلامى وجدنـا أنه كلـه يقوم أسـاسًا على فكـرة الإمامـة أو الخلافة ، وهى الملكيـة أو الملك كما رأينا ، وتـركز الفكـر السياسى فيمن يستحقهـا ومن لا يستحقها ، كأن حل المشاكل السياسيـة كلها للعالم الإسلامى يتـوقف على شخص الخليفة وكلهم يحلمـون بما يسمونه المستبـد العادل ، والمستبـد العادل هـذا خـرافة ؛ لأنـه ما دام مستبـدًّا فـلا يمكن أن يكون عـادلاً ، لأن الاستبداد هو الانفراد بالأمر أو بـالأمور كلها ، وهنا لابد من الخطأ ، وأين ذلك الإنسان الذى يصيب فى قراراته كلها ؟ . ولا يعرف التاريخ مستبدًّا عادلاً واحدًا ، فأما أهل السنة فقد تعلقوا بالمثال البكرى العمرى وهـو لا يتكرر ولا يقلد ، فلكى يتكرر فلابد أن يبعث أبو بكر وعمر مرة أخرى ، وقـرارات أبى بكر وعمر فى ذاتها كانت تصدر عن الشورى ، ولكن الكلمة الأخيرة كانت لأبى بكر ثم عمر ، وأبو بكـر أحرق رجلاً من المرتدين بالنار

وهو أمر لم يفعله رسول الله أبدًا ، بل هـو نهى عن الشناعة والحقد والغل فى العقاب أو القصاص ، ونهى عن المثلة أى التمثيل بجثث المقتولين ، وقـد ندم أبو بكر على ذلك حتى وفاته ، ولكن المهم أنه أحرق رجلاً بالنار ثم ندم ، فجاء بعده من يحرق الرجل والرجال بالنار ثم لا يأسف أو يندم ، وعمر قصر الشـورى على عدد قليل جدًا من الصحابة من القرشيين بينما كان رسول الله ﷺ يستشير الجميع ، وبعض الأنصار وغيرهم من عامة المسلمين ، كانت لهم الآراء الجميلة والبادرات الموفقة والأفضال المذكورة ، والخزاعيون كانـوا من أعاظـم أعوان الرسـول ﷺ حتى لقد رفعهم إلى مـراتب المهاجـرين دون أن يهاجـروا إلى المدينة وبـريدة بن الخصيب الأسلمى الخزاعى كـان علمًا من أعلام أمـة الإسلام أيام الرسـول ، وأبو ذر كان غفاريًا من فرع من كنـانة ولم يكن مضريًا ، فجاء عمـر وأبعد الخزاعيين وكل غير القـرشيين عن الشـورى ، واقرأ معى وصـايته فى أمـر الشورى وهو على فراش الموت ، والكلام هنا عن « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة (١ : ٢٢ ـ ٢٣) قال عمر بعـد أن قصر الشورى على الستة المعروفين « وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمـركم شىء ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله ابن عباس فـإن لهما فضلاً ، وأرجو لكم البركـة فى حضورهما ، وليس لهما من أمـركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارًا ليس له من الأمر شىء .. » . والسؤال هنا : لماذا لا يكـون للأنصـار من الأمر شىء ؟ ولماذا تقتصر الشـورى على هذا العـدد القليل من القرشيين دون غيرهم ؟ هل هى دولـة قريش أو أمـة الإسلام ؟ ولا يشك أحد فى نـزاهة عمر وإخلاصه ، ولكن انظر إلى الذى حدث بعد ذلك ، وما كان عمر يعلم الغيب ، ولكننا نحن أمـة الإسلام نتأمل الحصـاد المر الذى بأيـدينـا ، وننظر فى مأسـاة تاريخ أمتنـا الطويلـة ، ونقول : من أين أتانا هـذا البلاء كله ، وكان المفـروض أن نكون أحسن الأمم نظامًا وتاريخًا ؟ ..

والمشكلة الكبرى أتت من أن المسلمين لم يحلوا مشكلـة الحكم حلاً سليمًا يتفق مع معـانى القرآن ومـا جـرى عليه رسـول الله ﷺ فى قيادة الأمـة من الشـورى الكاملـة والمساواة التامـة بين المسلمين ، مع الإفادة كذلك من تجارب الأمم قبلنـا ، فإن الرومان لهم تجارب نافعـة جدًا فى الحكم ، وهم أول من نقلوا السلطان إلى الأمـة أو الشعب بعد عصر الملوك ، وهم أول من نظموا رياسة الدولة وجعلوها ولاية صادرة من الأمة موقوتة بزمن ، وتقسيم السلطـات بين موظفين مسئولين يختارهم مجلس الشيـوخ ـ لا رئيس

الدولة ـــ واحدًا واحدًا ، ومدة ولايـة كل منهم عامان على الأكثر يعـود بعدهما الأمر إلى مجلس الشيوخ ، حقًا إن ذلك لم يكن نظامًا مثاليًا ، ولكن النظام المثالى ذاته مستحيل ، وهـو حلم ولا يمكن أن يكـون إلا حلمًا ، ومن هنـا فإن الفكـر السيـاسى لأهل السنـة والجماعة أصبح يدور حول أوهام أو أحلام أو قـل تفسير أحلام . وأما الشيعة فقالوا : إن الأمة لو نصبت علىّ بن أبى طالب إمامًـا لبلغت السعادة وانحلت مشاكلها . ونقول : على رسلكم ولكن إذا نحن ضمنا صـلاح على بن أبى طالب فكيف نضمن صـلاح أبنائه وأحفاده أجمعين للحكـــم ؟. وعنـــدك كتاب « نسب قريش » للمصعب الزبيرى وكتاب « جمهرة أنساب العـرب » لابن حزم ، واقرأ فيهما أنساب العلـويين فستجد فى أجيالهم الكثير من الفساق والمسيئين ، ولا يعـرف التاريخ أسرة لا تضم الطـالح والصالح ، وفى مسائل السياسة والدهاء والمكر فى تلك العصـور تجد السابق دائمًا هو الطالح والفاسد الذى لا يستحى أو يتورع ، ويشترى ضمائر الناس أو يستذلهم بالقهر والغلب ، فهذه إذن قضيـة خـاسرة منـذ البـدايـة . والفكـر السيـاسى الشيعى ليس خيرًا من الفكـر السياسى السنى فى النهـاية ، لأن أهل السنـة والشيعة جميعًـا قالوا بـوجوب الإمـامة المطلقة السلطان المطلق ، وإن اختلفا حـول من يستحقها . والإمامة هى الملك ، والملك لا يطيق الحرية ، ومعنى ذلك أن حرية الفكر قد تحددت ـــ على درجات متفاوتة ـ من يوم قامت الخلافة والإمامة بعد أبي بكر وعمر ، على النحو الذى كانت عليه فى تاريخنا ، ومن غريب الأمر أن العصر الحديث عندنا ، وهو الـذى يوصف بأنه عصر الحرية والشورى التى نسميها ديموقـراطية ، جاء بعد أن ألغيت الخلافة على يـد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٢ ، فكأن إلغـاء الخلافة كان شرطًـا لتحرر الفكر ، وهـذا على الأقل هو منطق الواقع الذى كان ويكون ، والواقع أصدق من الخيال على أى حال .

***

ومن أكبر الدلائل على كبرياء من كـانوا يعتبرون أنفسهم الخاصة لأنهم أهل العلم المتميزون عن غيرهم ، أن ابن كثير مثـلاً عندما يتعرض لتفسير هذه الآيـات من سورة عبس ، لا يفطن إلى موقع الحكمـة منها ، بل يمضى يسـوق لنا أقوال علماء مثلـه : قال

الحافظ أبو يعلى فى مسنده ، وقال قتادة ، وقال ابن جرير (يريد الطبرى فى تفسيره) وقال الترمذى (فى صحيحه) وقال ابن أبى حاتم .. وهكذا ، وهؤلاء الذين يذكرهم جميعًا علماء ومحدثون وحفاظ مثله . وهو يعتبر العلم شيئًا خاصًا به وبأمثاله ممن كانوا يرون أنهم صفوة الله من خلقه ، وما كانوا بصفوة ، وإنما هم أوعية امتلأت بالمحفوظ المتوارث ، وكلهم ينقلون بعضهم عن بعض ، وعلمهم فيه حفظ كثير ولكن ليس فيه إلا تفكير قليل . وكلهم متعالون على الناس جدًا يرون أن مكانهم إما أن يكون فى بلاط السلاطين والخلفاء وإما فى وظائف الدولة وإما فى أوساط العلماء أمثالهم . أما أن يتنازل واحد منهم ويضع نفسه حيث يكون الناس فمن النادر .

والنتيجة أن معظم الأمة لم تفد الكثير من علم أولئك الناس ، وازداد جهل العوام بترفع العلماء عنهم ومباعدتهم إياهم ،بل كانت كبرياء العلماء على من كانوا يرونهم من العامة مهينة لكل حس إنسانى ، واقرأ مثلاً كلام الجبرتى عن ثورة « العوام والحرافيش » كما يقول فى كلامه عن الذين ثاروا على الفرنسيين فى أكتوبر ١٧٩٨ وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ، فإن الجبرتى يستنكر هذا العمل لأنه صدر عن العوام ، والعوام فى رأيه لا يحق لهم التدخل فى شئون السياسة والحكم ، فهذه من شأن العلماء والخاصة ، ومثل هذا الموقف وقفه الشيخ محمد عبده من الزعيم العظيم أحمد عرابى ، فقد كان عرابى فى نظر محمد عبده رجلاً جاهلاً تطلع إلى الحكم وليس هو له بأهل ، وهذا هو كلام محمد عبده على اتساع ذهنه ومعرفته بأحوال الدنيا ، ولكنها بقية من كبرياء أهل العلم من سلفنا الصالح ، لم يستطع الإمام محمد عبده أن يتخلص منها ، وكان الواحد من أهل العلم يبدأ حياته فقيراً معدمًا ، ويتعلم على نفقة الأمة ، ويعظم مركزه فيتعالى على الناس ، وإذا كان كريم الخلق وظل متواضعًا اعتبر الناس ذلك منه مكرمة أو كرامة ، فتجدهم يقولون لك فى كتب التراجم : إن فلانًا الفقيه كان لا يستحى أن يحمل خبزه بيده ، وهم ينسون أن رسول الله كان يكنس بيته بمكنسة فى يده ، ولا يرى فى ذلك تواضعًا ، وإنما هو خلق الرجل المسلم : يخدم نفسه بنفسه ولا حاجة به إلى أن يتخذ إنسانًا مثله خادمًا له يقف نفسه على خدمته .

ومهما تقرأ فى تاريخ الفكر العربى فإنك لا تجد إلا ناسًا مترفعين متعالين يحسبون أنهم يحلقون فى سماوات العلم مثل المعتزلة ، وواصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والقاضى عبد الجبار ومن إليهم ، يحسبون أنهم ـ من ناحية الفكر لا

الحياة ـ صفوة رفيعة تتكلم فى مسائل لا يفهمها غيرهم ، ولهذا فإن القضايا التى تناولوها وجعلوها مادة فكرهم قضايا افتراضية لا تنفع الإنسان فى شىء ، وكلامهم فى التوحيد لم يزد الناس إيمانًا ، ولا هو بيَّن لنا ميزة التوحيد ، أى أنك إذا سألت نفسك : إن المسيحى يعبد الله سبحانه وكذلك اليهودى وكلاهما موحد ، فبماذا يمتاز المسلم عليهما فى توحيده ؟ إذا مضيت تبحث عن جواب لهذا السؤال فى كلام المعتزلة عن التوحيد ، فما أنت بواجده أصلاً وهل ينكر إنسان أن المسيحى العارف بدينه موحد وكذلك اليهودى ؟ فأين الامتياز ؟ وهناك فعلاً اختلاف بين توحيد المسلم وتوحيد غيره ، ولكن هذا الاختلاف لا تجده عند المعتزلة . وإنما تجد جوانب منه عند الشهرستانى وابن حزم الذى كان يبطل الاعتزال وينكرُ أصله . حقًّا إن المعتزلة يجتهدون فى تنزيه الذات الإلهية تنزيهًا يحسبون أنهم قد وصلوا به إلى ذروة العلم ، مع أنك لو سألت أبسط المسلمين عن التوحيد لوجدته يفهمه ويطبقه دون تكلف أو افتعال . ومَنْ مِنَ المسلمين يتطرق إلى نفسه شك فى وحدانية الله وتفرده ؟ ومن منهم يخلط بين الله سبحانه وصفاته ؟ ومن فى الناس لا يفهم أن الله كريم كرمًا إلهيًّا لا يشبه كرم الناس ، وأنه عليم علمًا إلهيًا لا يشبه علم الناس ، وأننا إذا قرأنا أن يد الله فوق أيديهم فإن المراد بيد الله سبحانه شىء غير أيدينا هذه ذات الكف والأصابع ؟

ومثل ذلك مناقشة المعتزلة لمسألة قدرة الله ، وهل هو سبحانه قادر على الظلم ؟ والجواب بالنسبة للعوام ـ أمثالنا ممن هم ليسوا بمتكلمين ـ أن الله سبحانه لا يظلم الناس بنص القرآن ، فهو ليس بظلام للعبيد ، وما دام هذا فى القرآن ففيم السؤال ؟ هل يريدون : هل الله يسلط الظالمين من الناس على غيرهم ، فيكون هو الذى فعل الظلم ؟ .. وجوابنا على مثل هذا السؤال : أن الله منحنا العقل وجعلنا لهذا مسئولين عما يصدر عنا ، واقرأ الآيات التالية من سورة البقرة وحدها تجد الجواب .. ﴿ **واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ آية ٢٨١ .

﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ جزء الآية ٢٨٦

وفى سورة آل عمران نقرأ :

﴿ **فَكَيْفَ إذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ آية ٢٥

وفى سورة المدثر نقرأ هذه الآية البليغة المعنى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ آية ٣٨

فهل فَكَّرَ هؤلاء السادة فى المعانى البعيدة التى تكمن وراء هذه الآية ؟ وهل سألوا أنفسهم : كيف تكون النفس رهينة بما كسبت ؟ ..

فالسؤال الذى وضعوه بشأن قدرة الله على الإتيان بالظلم سؤال لا معنى له بالنسبة للمسلم العادى ، وهو الذى يفهم الإسلام فى مجموعه ، ولا يأخذه مقطعًا مقسمًا كما هى عادة هذا الطراز من مفكرى المسلمين .

وقضية كلام الله وخلق القرآن .. أليست قضية مفتعلة لا ينبغى أن توجد بالنسبة لمسلم يفهم الإسلام ؟ فإن الله سبحانه يتكلم بأبلغ بيان ، لا فى القرآن وحده بل فى الخلق كله ، وأنت إذا تأملت الكون وما فيه تشعر كأن هذا الخلق كله بآياته وعجائبه كتاب مفتوح تقرأ فيه كيف تشاء ، وكلام الله تحس به بنفسك أنه لا يمكن أن يكون شبيهاً بكلامنا ولا يمكن أن يكون حروفًا أو كلمات تكتب ، ولكننا نحن كتبناها فى الصحف وجعلناها حروفًا مكتوبة محافظة عليها من الضياع حتى يظل كتاب الله الذى أوحى إلى محمد ـ صلوات الله عليه ـ ثابتًا بين أيدينا بلفظه وحرفه ويظل معجزة متجددة .

وهنا لا معنى للسؤال عن كلام الله وهل هو قديم أو مخلوق ؛ ولكن أصحابنا المعتزلة جعلوها قضيتهم الكبرى ، وما زالوا يطرحون الأسئلة المفتعلة ويحاولون الإجابة عنها ، حتى جعلوها قضية سياسية بل زلزالاً فكريًا امتحنت به الأمة كلها على غير طائل ، وانتهت محنة خلق القرآن فى أيام الخليفة المتوكل ، واختفت من حياة المسلمين كأنها لم توجد أصلاً .

* * *

وهذا هو الذى يعنينا هنا : أن مفكرى الإسلام لم يعالجوا المسائل التى تهم الناس علاجًا حقيقيًا ، وصرفوا جهدهم إلى ما لا يهم غالبية الناس فى حياتهم ، فلم يقم واحد منهم بإثارة موضوع مثل : حقوق الإنسان أو حرية الإنسان أو قيمة الإنسان ، ولو أثاروا أمثال هذه المسائل لدفع الكثيرون منهم حياتهم ثمنًا للإجابة المفيدة عن هذه الأسئلة ، ولكان للمتكلمين وأصحاب الكلام دور حقيقى فى حياة أمة الإسلام لأن شهداء الفكر هم الذين بنوا صرح الحضارة .

ولكن هذا هو الذى كان : اشتغل أهل الفكر والعلم بمسألة بعيدة عن صلب رسالة الإسلام ، وباعدوا بين أنفسهم والناس مع شدة حاجة الناس إليهم ، فما كان أبو الهذيل العلاف أو بشر بن المعتمر أو إبراهيم بن سيار النظام بأصحاب ملكات يستهان بها ، وإنك لتقرأ كلامهم وتعجب به ، ولكنك فى نفس الوقت تحس أنك معهم تمضغ لبانًا لا يتحصل منه شىء ، فهو مجرد كلام . كلام جميل ذكى بليغ ولكنه كلام . كلام بين ناس مترفعين متعالين يتصورون أن القرآن نزل على محمد صلوات الله عليه ليبلغه إليهم وحدهم من دون الناس كافة ، وهم ــ بارك الله فيهم ــ الأحبار الأجلاء الذين يحلون المشاكل ، أو قل يزيدونها تعقيدًا .

لقد ابتعدوا عن الناس وترفعوا عنهم ، فلم يجد الناس من يعلمهم أو ينير لهم الطريق ، والواجب الأول لصاحب العلم هو أن يسعى بعلمه إلى الناس ، ويتصل بهم وينظر فى مشاكلهم ليحلها معهم على أساس العلم والفهم . أما علماؤنا والمتكلمون خاصة فقد باعدوا الناس واحتقروهم واشتغلوا بمسائل فكرية لا تعنى أحدًا غيرهم . فكأنهم وقفوا بعلمهم فى طريق مسدود ؛ لأن العلم لا يكون ذا قيمة إلا إذا وصل إلى الناس وانتفع به الناس ، وما قيمة مصباح وضع فى غرفة مقفلة ؟ . واقرأ معى هنا قول الدكتور توفيق الطويل فى كتابه القيم عن أسس الفلسفة : ويقول (ديكارت) فى كتاب مبادىء الفلسفة (ص ١٢٥) : « إن غرض الفلسفة هداية سلوك الإنسان فى حياته والمحافظة على صحته ، وكشف الفنون . أى أن غاية الفلسفة ليست مجرد العلم ـ كما ذهب أرسطو ومن تابعه ـ بل غايتها تحقيق رفاهية البشر وسعادتهم ، وكمال العلم إنما يكون باتصاله بالحياة العملية حتى يسود الإنسان الطبيعة ويهيمن عليها . ولا يكون كمال العلم بدنوه من النظر العقلى المحض وابتعاده عن المنفعة العلمية .. كما ظن أرسطو من قبل » .

* * *

مَوْقِـف المعتزلَـة ..
مِـنْ قَضَايَـا الإسْـلاَمِ !

أخشى أن يحسب القارىء ـ بعد الذى قلت عن المعتزلة ـ أننى أقلل من شأنهم أو أجهل أقدارهم ، هـذا يكون خطأ جسيمًا فى حق طائفة من مفكرى الإسلام قل أن نجد لها نظيرًا فى العلم أو الذكـاء والموهبة الأدبيـة وسلامـة الخلق وصدق الإيمان والجد فى الحياة والعمل . فقد كان شيوخ الاعتزال على أعلى مستوى فى هذه النواحى كلها . ولكن الذى يؤخـذ عليهم أنهم استخدموا ذكاءهم كله وعلمهم كلـه فى قضايا موهومـة أحيانًا وغير مجدية بالنسبة للإسلام أحيانًا أخرى . فأنفقوا ما وهبهم الله من المزايا .. والخلال فى غير طائل .. وعندمـا نقرأ أن أبا الهذيل العلاف امتـلأت حياته بالمنـاظرة والجدل مع الزنادقة والشكاك والمجوس والثنويـة وأنه أسلم على يـده أكثر من ثلاثة آلاف رجـل (أحمد أمين . ضحى الإسلام ٣ / ٩٩) نتصور أن عالم الإسلام قد تحول إلى عالم كفار وزنادقة وملحدين . وأن الإسلام نفسه لم يفعل شيئًـا لهداية الناس ، وأنه لولا المعتزلة لضاع أمر الإسلام وليس شىء من ذلك بصحيح . لأن عـالم الإسلام كان ـ ولا يزال ـ فى مجموعه عالمًا سليمًا من ناحية الإيمان والاعتقاد .

والإسلام نفسه عقيدة واضحة بينة لا يدخلها الشك الكثير . فهى قائمة على كتاب صادق مـروى محفوظ بالتـواتر ، وكلامـه ناصع سـواء فيما يتصل بقدرة الخالق أو وحدانيتـه . وقضايـا التوحيـد والعدل والـرأى فى مرتكب الكبيرة قضـايا خلقوهـا هم أنفسهم وغرقوا فيهـا ونحن لا نفهم قول الخياط المعتزلى : إن إبراهيم النظـام وأشباهه حاطـوا التوحيد ونشروه وذبوا عنـه وشغلوا أنفسهم بجوابـات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها ؛ لأننا نعرف أن العقيدة كانت مستقرة فى قلـوب جماهير المسلمين قبل المعتزلـة وأيـام المعتزلـة وبعدهم . أمـا إنـه كان هنـاك ملحدون وشكـاكون فلا نـزاع فى ذلك لأن هؤلاء مـوجودون فى كل زمان ومكـان والرد عليهم لا يكـون بالجدل معهم ؛ لأن الجدل فى أمـور العقـائد عقيم لا يؤدى إلى نتيجـة ، والملحد المكابر لا يزيده الجدل إلا لجاجة . وفى القرآن آيات يكفى أن تتلوها على الإنسان لترى إن كان فى هـداه أمل . فإذا كابر بعـد ذلك فلا ينفع معه كـلام . وخير لك أن تتركه

على حاله والله سبحانه يهديه أو لا يهديه كيف شاء واقرأ قوله تعالى فى سورة الغاشية :

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وإلى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيهِمْ بِمُسَيطِرٍ * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾ . (الغاشية ٨٨/ ١٧ ـ ٢٦) .

فبعد هذه الآيات التى هى فى ذاتها أبلغ الحجج والبراهين ـ ماذا يستطيع محمد بن الهذيل العلاف أو إبراهيم بن سيار النظام ؟ لقد كان كلا الرجلين من أوسع أهل الأرض علمًا وأذكاهم وأبلغهم بيانًا ولكنهما ـ وبقية المعتزلة ـ أنفقوا علمهم كله وذكاءهم كله فى مجادلات هى أشبه بالرياضات الذهنية أو ألعاب شطرنج ذهنية . لقد جاءوا ومضوا دون أن يخلفوا لنا شيئًا له قيمة عملية وذلك هو ما يبعث فى النفس الأسى : أن يرزقنا الله الإسلام فلا نعرف قدر الإسلام ، ويعطينا الأرض فلا نعرف كيف نحافظ على الأرض ، ويمنحنا الذكاء فننفقه فى الهباء ، وفى أيامنا هذه مثلاً يرزقنا ثروة لا نظير لها على الأرض : ثروة النفط فلا نجد ما ننفقها فيه إلا أن يحرق بعضنا به بعضًا ..

وقد اغتروا بذكائهم فصاروا كأنهم يتحلَّوْنَ به كأنه زينة وأولعوا بحب الظهور حتى إن بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد رمى أبا الهذيل بالنفاق وحب الظهور ، وقال فيه تلك الكلمة القاسية التى يرويها أحمد أمين فى ضحى الإسلام (٣/ ١٠٠) ، وملخصها أن الرجل كان يفضل المظهر وثناء الناس وإعجابهم به على العلم الحقيقى والصدق فى القول ..

وإبراهيم بن سيار النظام كان ذهنًا صافيًا وبحرًا من العلم بلا شك ولكنه كان يحلو له أن يأتيك بالقضية فيؤيد صدقها بكلام بليغ ثم ينقضها بكلام أبلغ . وهذا فيما نرى أمر لا يليق بصاحب الفكر الصادق ..

وكان أبو موسى عيسى بن صبيح المردار ـ وهو من أئمة مدرسة الاعتزال فى بغداد ـ رجلاً صالحًا زاهدًا فى الدنيا حتى لقب براهب المعتزلة ، وعندما حضرته الوفاة أوصى ألا يرث أحد من قرابته تركته وطلب أن تفرق كلها فى المساكين وقال فى ذلك كلمة جميلة جدًا مفادها أن هذا المال كله كان للفقراء وأنه خانهم فيه ولم يزل ينتفع به طول

حياته فهم أولى به بعد مماته (الانتصار للخياط ٦٩) ولكن هذا الرجل الصالح كان يكفر الناس أجمعين فمن قال : إن الله يرى بالإبصار فهو كافر ومن سها عن عبادة كافر ومن أخذ من السلطان أدنى شيء كافر ، حتى سأله رجل يسمى إبراهيم بن السندى مرة عن أهل الأرض جميعًا فأكفرهم فقال له إبراهيم : هل الجنة التى عرضها كعرض السماوات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ؟ ولعل هذا الرجل كان من آثار بدعة القول بخلق القرآن فى بغداد . وذهب به الغرور بنفسه أن قال ـ فيما يحكى الشهرستانى فى الملل والنحل ـ إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظمًا وإن إعجاز القرآن يكمن فى معانيه وإخباره بالمغيبات . وهذا كلام رجل لا يملك أدنى إحساس بالقرآن الكريم .

أما ثمامة بن الأشرس فقد استعمل علمه فى إمتاع الخلفاء بالكلام الجميل والنوادر اللطيفة . وكان ـ كما يقول الشهرستانى ـ خليع النفس . وعندما تقرأ بعض كلامه تحس أنك أمام مشعبذ مغرور . وقد أفاد من ذكائه وعلمه مالاً كثيرًا ولم ينفع الناس بشيء وعندما نصل إلى أحمد بن أبى دواد نجد أنفسنا أمام شيخ علامة واسع الذكاء حسن التصرف فى القول ، ولكنه خان قضية الفكر كلها عندما أصبح من رجال السلطة وأدواتها وعندما أصبح قاضيًا لبغداد ـ وهى وظيفة تشبه وزير العدل فى أيامنا ـ استعمل جاهه كله فى السطو بالفكر وأهله وامتحن الفقهاء وأهل الديانة بالقول بخلق القرآن واستحل ضرب الناس وعذابهم وتشريدهم وحرمانهم من وظائفهم ؛ لأنهم خالفوه فى الرأى وظل ثمانية وعشرين عامًا سوط عذاب مسلطًا على الناس حتى أصيب بالفالج سنة ٢٣٢ هـ / فى أول خلافة المتوكل فتنفس الناس الصعداء ..

هذا إلى ما عرف عن المعتزلة جميعًا من التعالى على الناس ونظرتهم إلى العمال والزراع وبقية أهل الحرف والأسواق على أنهم رعاع جهلة لا ينبغى أن يكون لهم أى نصيب من عقل أو فكر ؛ لأنهم فى نظرهم أشبه بالأنعام ، وهذا الموقف من جانب المعتزلة جعل معظم كلامهم هباء لا يتحصل من ورائه شيء . وقد أبغض المعتزلة الفقهاء واتهموهم بالتقليدية والجمود والتسليم المطلق دون إعمال فكر ، ولكن الفقهاء كانوا على أى حال أكثر فائدة للأمة من المعتزلة فقد عاشوا بين الناس ونصحوهم وخدموهم ونفعوهم وطبقوا فى معاملاتهم أحكام الشريعة ، وتلك خدمة جليلة لا ينازع فيها إنسان .

وما دام المعتزلة قد زعموا أنهم أهل الفكر الرفيع والفهم الصادق فلنحاسبهم على هذا الأساس ونسأل : هل فهم المعتزلة حقيقة الإسلام وأدركوا لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟

نقف هنا هنيهة ونسأل : هل كان فى تقدير الله سبحانه عندما أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن أن يزيد عدد الأنبياء واحدًا وعدد الأديان واحدًا ؟ ولماذا جعل الله محمدًا خاتم النبيين والقرآن آخر كلام الله للبشر ولا رسالة بعده ؟ إن لدينا فى القرآن آيات من سورة القصص تجيب عن هذه الأسئلة وتشرح لنا حكمة الله فى ذلك . قال جل وعلا : ﴿ **إن فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فرْعَوْنَ وَهَامَان وجنودَهُمَا مِنْهُمْ ما كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ .

[القصص٢٨ / ٤ ـ ٦] .

هذه الآيات الكريمة تجيب عن الأسئلة التى لم تخطر ببال أحد من هؤلاء النوابغ : لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟ لكى يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ! ولكن الدنيا إذ ذاك كانت حافلة بالمسيحيين ، وكثيرون جدًا منهم كانوا ناسًا أتقياء يسيرون على الصراط المستقيم ، والقرآن نفسه يقرر ذلك ويقول فى سورة المائدة (٥ / ٨٤ ـ ٨٥) : إنهم أقرب مودة للذين آمنوا لأن فيهم قسيسين ورهبانًا وهم لا يستكبرون بل كان الكثيرون منهم تفيض أعينهم بالدمع إذا سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق . ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ . والكثيرون منهم آمنوا لأنهم رأوا أن القرآن يصدق ما كان بين أيديهم .. إذن فلو أن الله أراد بالرسالة المحمدية مجرد تصحيح مسار الأديان السماوية السابقة على الإسلام وهداية أهلها وإعادتهم إلى الطريق القويم لما كانت هناك حاجة إلى نبى جديد ودين جديد .

لا بد أن هناك حكمة أخرى هى فى رأينا التى تراها فى هذه الآيات . إنها تبدأ بالتنبيه إلى ما فعل فرعون بالناس ، لا يمكن أن يكون المراد هنا فرعونًا معينًا أو فرعون ملك مصر وحده ؛ لأن الله يجمع فى سياق الآيات بينه وبين هامان وجنودهما . وهامان كما نعرف لم يكن وزير فرعون . بل كان وزير ملك بابل أو هو ملك بابل نفسه ،

وجنودهما يراد بهم كل المستبدين الذين بطشوا بالناس وأنزلوا بهم المظالم التى تذكرها الآية وكلها من خصائص الحكام فى العصور القديمة : الاستبداد بالضعفاء وجعل الناس شيعًا أى طبقات وإنزال المذابح بالمستضعفين . إذن فالمراد هنا هى العصور القديمة وسادتها من المستبدين والملوك والعسكريين ..

وماذا يريد الله سبحانه إذن بالقرآن والإسلام ؟ اقرأ قوله :

﴿ ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ على الذِينَ اسْتضعِفُوا فى الأرضِ ونجعَلهُم ائمةً ونجعَلهُمُ الوارِثينَ وَنمكِّنَ لهُمْ فى الأرضِ ﴾ .. الآية .

إذن فتلك هى الحكمة فى بعث الله سبحانه محمدًا بالقرآن والإسلام . الحكمة هى إنهاء عصر من عصور التاريخ وبداية عصر جديد .

نهاية عصر الطغاة والمستبدين والظالمين الذين ظلموا الناس وأفسدوا فى الأرض طوال العصور القديمة .

وبداية عصر الذين كانوا مستضعفين فى الأرض . أولئك سيكونون الأئمة والوارثين ، ومن هم أولئك المستضعفون فى الأرض ؟

كل الذين كانوا يعملون فى عمران الأرض : العمال والحرفيون والزراع والتجار وأهل العلم وكل بناة الحضارة الحقيقية للإنسان .

هنا ـ وعلى ضوء التاريخ العالمى ـ تتجلى لنا رسالة الإسلام .

والبعثة المحمدية ونور القرآن فاصلان فى تاريخ البشر . إنهما بداية عصر العمل والعمران والخير . والقرآن الكريم أعطانا مفاتيح ذلك كله : الإيمان بالله وحده بلا شريك أو وسيط حتى لا يزعم إنسان أنه إله ، أو نصف إله أو إنسان رفعه الله وأحظاه بالقداسة ليصير وسيطًا بين الله والناس .

إنها بشارة بعصر العمل الصالح ، والقرآن ينص مرة بعد أخرى على العمل الصالح . العمل الصالح هو ما ينفع الناس ، لأن الله سبحانه لا يفيد من أعمالنا . والعبادات على رأس الصالحات ولكنها ليست غايات فى ذاتها . وأنت لا تصلى ؛ لأن الصلاة دين عليك لله أو ثمن لما ستناله فى الآخرة ، بل هى سبيل لتصفية النفس الإنسانية وحمايتها من الوقوع فيما يضرها : ﴿ اتل مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبر والله يَعْلَمُ مَا

﴿ تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت ٢٩ / ٤٥) هنا نرى حكمة الصلاة : إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . إن وقوفك بين يدى الله سبحانه خمس مرات فى اليوم جدير بأن يشعرك بقدرك ومسئوليتك أمام الله وحده ، وهذا فى ذاته يعصمك من التردى فى أى خطأ فاحش منكر .

والقرآن يجمع دائمًا بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . والصلاة واجبك نحو نفسك ونحو خالقك ، والزكاة واجبك نحو أخيك المؤمن وخالقك . والإنسان لا يتزكى إلا إذا كان لديه مال ، ولا يكون لديه مال إلا إذا عمل وكسب المال والعمل مفتاح الخيرات كلها . والعمل الصالح هو كل عمل يؤدى إلى صلاح النفس وصلاح الأرض وعمرانها . والله سبحانه وتعالى أورثنا الأرض لنعمرها بالعمل الصالح . واسأل نفسك . : ما معنى قولنا : إنسان صالح : صالح لماذا ؟ وفى سورة مريم آية تربط بين إقام الصلاة والضياع فى الشهوات : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إلا من تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالحًا ، فاولئك يَدْخُلُون الجَنَّة ولا يظلمون شيئًا ﴾ . (مريم ١٩ / ٥٩ ، ٦٠) .

واقرأ الآيات التالية من سورة الحج وتدبر معانيها وربطها بين الصلاة والقوة فى الأرض والمعروف والمنكر : ﴿ الذين إن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكَاةَ وأمروا بالمعرُوفِ وَنَهَوْا عَن المنْكَرِ ولله عَاقِبةُ الأمُورِ ﴾ (الحج ٢٢ / ٤١) .

وحسبنا هذه الآيات البينات ، فليس هذا بحثًا فى فضائل الإسلام ، إنما هو بحث عن رسالة الإسلام . لماذا أهدانا الله إياه وهدانا إليه . والنظرة التاريخية للإسلام وحكمته تؤكد ما قلناه من أن الله بعث محمدًا بالإسلام ليختم به عصرًا من عصور الإنسانية ويبدأ به عصرًا جديدًا . وهو نذير بنهاية عصر الظلم والاستبداد بالعاملين المصلحين للأرض وإذلالهم على أيدى الطغاة والظالمين من ملوك مستبدين ورمزهم فرعون ووزراء مفسدين ورمزهم هامان وعسكريات ظالمة طاغية باغية ورمزهم جنود فرعون وهامان .

مكان ذلك كله يريد الله أن يمن على المستضعفين فى الأرض ويجعلهم الأئمة ويجعلهم الوارثين .

ورسول الله ﷺ أقام أمة العدل دون حكومة ؛ لأن الحاكم هو الشرع ، ودون جيش لأن الجيش هو الأمة و الأمة هى الجيش ، ودون شرطة لأن الشرطة الحقيقية هى القلب

أى الضمير . والأمور كلها تساس بالشورى . ورسول الله أمره كله شورى فى كل ما يتصل بشئون الدنيا والمعاش . رسول الله ضرب المثل ورسم الطريق وفيه سار الشيخان من بعده فنجحت أمة الإسلام نجاحًا لم تسبق إليه ، والله سبحانه أمرنا بأن تكون منا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتلك الأمة هى أهل الشورى . وأهل الشورى بالاختيار. والبداية فى بيعة العقبة الثانية وهى بداية أمة الإسلام ، فإن الرسول قال لمن بايعوه فى العقبة : أخرجوا لى اثنى عشر نقيبًا . أى انتخبوا من بينكم فئة ترضون عنهم لتكون معى أهل شورى . وعندما نزل رسول الله فى قباء قضى أيامًا يشاور الناس ويبادلهم الرأى وتلك هى بداية عصر الشورى . والصحيفة التى كتبها الرسول بين المسلمين والمؤمنين من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم لم تكن إملاء منه بل كانت ثمرة أخذ وعطاء وتبادل رأى فيما يرضى به الناس فى إطار القرآن . الصحيفة هى ميثاق الأمة ، وأساس تطبيق الميثاق هو البر ، والبر هو الوفاء .

* * *

تلك القضية ، قضية حكمة الله سبحانه فى إرسال محمد بالإسلام كان ينبغى أن تكون على رأس القضايا التى تشغل بال المعتزلة إذا كانوا يريدون فعلاً أن ينفعوا الناس بفكرهم وعلمهم ، لأن العلم والفكر ـ مثلهما فى ذلك مثل أى وجه آخر من وجوه نشاط الناس ـ ينبع من حاجات الأمة ويصب فى الأمة ليسد تلك الحاجات. وكل شىء لا ينبع من حاجة أساسية من حاجات الأمة ولا يسد حاجة من حاجاتها فهباء لا يتحصل منه شىء أو هو ضار . وخذ مثلاً لذلك القمح فهو نابع من حاجة الناس إلى الطعام ، وهو يسد حاجة الناس من الطعام وإذن فهو خير .وقارن بذلك الدخان أو التبغ ، فإن الله خلقه نباتًا من نبات الأرض لحكمة أرادها فنجىء نحن نحرقه ونستنشق دخانه ، ثم نجعله صناعة تنبع من غير حاجة وتصب فى غير حاجة إذن فالاشتغال بزراعته وصناعته وتجارته واستخدامه على هذا الوجه شر . كذلك الفكر والعلم أهدانا الله إياهما لنستخدمهما فى علاج موضوعات نابعة من حاجة الأمة وتصب فى حاجات الأمة . فيجىء أصحابنا المعتزلة ليستخدموا ذكاءهم وعلمهم وبلاغتهم فى قضايا لا حاجة للأمة بها ، ومن هنا كان الكلام فيها لا ينفع الأمة . ولا يسد حاجة من حاجاتها فقلت الفائدة منه وكان حصاده هشيمًا .

وانظر والله فى كلامهم فى موضوع العدل . إنهم يركزون على عدل الله سبحانه ،

وهل شكّت الأمة فى عدل الله ؟ وإذا كان الله يقول بصريح اللفظ والمعنى فى القرآن : إنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وإن ما يصيب الناس من خير فإنما هو ثمرة اتباعهم سبيل الله وما يصيبهم من شر فإنما هو ثمرة الهوى والخروج على منهاج الله ، فما معنى أن نثير هذا الموضوع ونجادل فيه ؟ إن من يشغل نفسه ـــ والناس معه ـ بالجدل فى عدل الله والتساؤل : إن كان الجور يصدر عن الله ، يدل دلالة واضحة على أن من يفعل ذلك فهو متكلم فى موضوع لا يشغل بال الأمة ، فالأمة مؤمنة بعدل الله وأن الله سبحانه عندما أعطانا العقل فقد حملنا مسئولية أعمالنا ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره . فالكلام هنا ـ بالنسبة للمسلم ـ كلام فى غير موضوع وهو لا يسد حاجة من حاجات الأمة .

أما المشكلة التى كان ينبغى على المعتزلة أن يشغلوا أنفسهم بها فهى عدل الناس أو العدل فى الناس . وهنا وبدلاً من أن يدرسوا سنة الرسول ومنهاجه فى تسيير أمور الأمة نجدهم يدخلون فى مسألة الخلافة والإمامة ومن يستحقها ومن لا يستحقها ويسلمون تسليمًا قاطعًا بأن الناس فى حاجة إلى إمام مفرد أو حاكم بأمره ويطول بحثهم عن ذلك الإمام المفرد العادل أو الحاكم بأمره العادل ، والتاريخ لا يعرف إمامًا مفردًا عادلاً . فما دام مفردًا يحكم بأمره فهو ظالم والمستبد العادل مخلوق خرافى ، إنما الحقيقة هى الأمة العادلة . الأمة التى تسير على منهاج الله ، والأمة العادلة تختار الإمام العادل ، هى تختاره وهى تعطيه سلطاته وهى تشاركه فى هذه السلطات وهى تحاسبه وهى تحدد متى يتولى ومتى يعزل . الأمة فى الإسلام أى فى العصرالجديد الذى تحدثنا عنه هى الأصل والفرع ، هى البداية والنهاية والشورى هى طريق الحكم فى الأمة وهى فى القرآن أمر طاعته واجبة ، والشورى حق للأمة كلها والرأى لا يقتصر على أهل العلم بل يشمل الأمة كلها ، أما أن تكون فى الأمة طبقة أرستقراطية عقلية هى وحدها صاحبة الرأى والفكر ومن عداها ففى مراتب البهائم فجهل بالإسلام فادح ، فهؤلاء العامة هم المستضعفون فى الأرض ، هم الذين أراد الله أن يمن عليهم ويجعلهم الوارثين ، فهم العاملون فى عمران الأرض ومن بينهم يكون الصالح والطالح ، أما الحاكم المستبد الذى لا يتولى برضا الأمة ولا يزول عندما تريد الأمة فهو ظالم بمجرد وجوده على هذه الصورة مهما زعم أنه يتحرى العدل ، بل إن وجود الحاكم على هذه الصورة رجوع بالإنسانية إلى عصور ما قبل الإسلام ، عصور فرعون وهامان وجنودهما ، وهذا

بالضبط ما حدث لأمة الإسلام ؛ لأنها غفلت عن حكمة الإسلام كله وخرجت بذلك عن منهج الله . وما معنى حصر النقاش السياسى كلـه فى البحث عمن كان أفضل : أبو بكر وعمر وعثمان أم على ، فهو كلام فى غير موضوع . فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ليسوا كل تاريخ الإسلام ؛ لأن كل تاريخ الإسلام هـو سُنة محمد ﷺ ، ومحمد كان يستمع لكل الناس ويحترم آراء كل الناس ، وقد جعله الله يعبس ويتولى عندما جاءه المستضعف ابن أم مكتوم يسأله أمـرًا ثم لامه فى ذلك لتكون للناس حكمـة وموعظة ، والمستضعف ابن أم مكتوم كان أفضل وأزكى عند الله مـن الوليد بن المغيرة ومن فى طبقته . ثم يجىء الجاحظ ويجمل القول فى صاحبه إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى ويقول :

لـولا مكان المتكلمين لهلكت العـوام من جميع الأمم ، ولولا مكـان المعتزلـة لهلكت العوام من جميع النحل فإن لم أقل : ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتـزلة ، فإنى أقـول : إنه أنهج لهم سبـلاً وفتق لهم أموراً واختصر أبـوابًا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة (الحيوان للجاحظ ٤/ ١٩ رواه أحمد أمين فى ضحى الإسلام ٣/ ١٢٧) .

والسؤال الآن : وهل عـرفنا في تاريخ الإسـلام إلا هلاك العـامة أى عامـة الناس ؟ وإذن فماذا فعل المعتزلة ؟

لكى تتضح لك حقيقة ما أريد قوله آتيك بحديث فقيه عالم لاهوتى من أهل الغرب ، وأهل الغرب نجحوا فى حيـاتهم ووفقوا إلى نصيب من الرخاء والنظام والعـدل يفوق ما وصلنا إليه نحن بكثير ، وأنا عندما آتيك بحديـث هذا الفقيه اللاهوتى فى العالم وما فعل وكيف فكر وكيف تصرف فأنت ـ أرجو ـ تفهم عنى ما أريـد قوله ؛ لأننا عندما ننظر فى تـواريخ غيرنـا وتجارب الأمم نـزداد فى أمـرنـا بصرًا وبصيرة ، والأمـور كما تتبين بأضدادها فهى تتضح بأندادها .

هذا الفقيـه العالم الغربى المسيحى هو مـارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) صاحب الثورة الكبرى على الكنيسة الكاثوليكية ومنشىء الحركة البروتستانتية ، هذا الرجل ولد فى قريـة صغيرة تسمى إيسلبينى فى مقاطعـة ثورينجيا فى بلـدة سكسونيـا فى ألمانيا ، وكانت ثورته على واحد من أعاظم أباطرة المسيحية ، وهو شارل الخامس الذى يعدل فى تاريخ الغـرب المسيحى خليفة من عظماء خلفائنـا هو هارون ، ومارتن لـوثر رفض أن يكـون فقيهًا من حـواشى الامبراطور شرلكـان ،رفض مـا كان يسعى إليـه ويحفى فى سبيله أئمة المعتزلة من واصل بن عطاء إلى أحمد بن أبى دُوَاد القاضى الأعظم .

ومارتن لوثر لم يبلغ ما بلغ من المكانـة فى التاريخ لمجرد احتجاجه على بيع صكوك

الغفران ، فالكنيسة الكاثوليكية منذ قامت كانت تبيع الغفران ، فهى الوسيطة بين المؤمنين والله ، والمسيحى الكاثوليكى مهما فعل من أعمال التقى لن يدخل الجنة إلا إذا رضيت عنه الكنيسة وتوسطت له عند الله ، وهذه الوساطة لها ثمنها ، وكان المسيحيون يدفعون هذا الثمن راضين ؛ لأن الكنيسة ليست مجرد مكان للصلاة بل هى ديوان وإدارة ودولة ، وهى تشرف على حياة المؤمنين من الميلاد إلى الوفاة فهى تعمد الأطفال وبدون التعميد لا يكونون مسيحيين وهى تثبتهم فى العقيدة حوالى سن العاشرة وبدون التثبيت أو ما يسمى بالكونفير ماسيون لا يكون الإنسان عضواً فى أمة المسيح وهى التى تتولى عقد الزواج ولا طلاق إلا بإذنها ، وهى كذلك تتلقى الاعتراف على مراحل العمر وتمنح الغفران أولا بأول ، وهى فى النهاية تصلى على روح الميت وتفتح له أبواب السماء وبدون ذلك تظل روح الإنسان معلقة فى المطهرأو اليورجاتورى حتى تصلصل قطعة النقود فى حصالة الكنيسة ، هنا تقفز الروح إلى الجنة Wenn Desgeld Klingt Die Sea La Sjingt ولوثر لم يعترض على ذلك ؛ لأنه كان يعرف أن أعمال الكنيسة ودفاترها تحتاج إلى سجلات والسجلات تتطلب مالا ، ولكن الذى اعترض عليه لوثر كان تحويل مال الغفران إلى صكوك يشترى منها ما يشاء ما شاء ، وعلى قدر ما يشترى يكون نصيبه من الفردوس ، ولم يعجبه أن يبيع البابا ليو العاشر وظيفة أسقف مدينة ماينتس لرجل يسمى البريخت، كان أميرًا على براندمبورج بمبلغ ٢٤,٠٠٠ قطعة من الذهب ، والأمير البريخت أصبح أسقفًا وبهذه الصفة أصبح له الحق فى منح الغفران لقاء مال ، فأصدر وثائق الغفران وجعل لها سعرًا وحولها إلى تجارة، وأصبح أى فاسق على وجه الأرض يستطيع أن يشترى الغفران لنفسه وزوجته وأولاده الأطفال ، بل لأبويه وجديه الذين ماتوا .

احتج لوثر على ذلك فى وثيقة يقال : إنها تضمنت ٩٥ حجة على بطلان بيع الصكوك وعلقها على باب كنيسة قريته وغضب عليه الأسقف الأمير وطلب من البابا حرمانه من رحمة الله ، والبابا طرده من الجنة ، ولكن حتى هذا لم يكن السبب فيما وصل إليه لوثر من المكانة فى التاريخ .

والحقيقة أن مارتن لوثر أصبح من أعاظم المصلحين فى التاريخ ؛ لأنه فعل بعد ذلك ما لم يفكر فيه قط أصحابنا المتكلمون أئمة الاعتزال .

***

دَرْسٌ منْ فَقِيهٍ مُعْتَزِلِىٍّ مَسيحِىٍّ
مَـارْتِنْ لُوثَـــر

مارتن لوثر رجل الدين الألمانى (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦م) الذى يمكن اعتباره ـ إلى حد بعيد ـ فقيهاً متكلماً معتزلياً مسيحياً ، وتمكن ـ دون أن يغادر قاعدته الدينية الخالصة ــ من إحداث أكبر حركة فكرية دينية اجتماعية سياسية فى تاريخ الغرب الأوروبى قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، وذلك لأنه ـ بخلاف الفقهاء والمتكلمين عندنا ــ لم يتكلم من المنصة الفقهية الرفيعة المتعالية عن سواد الناس ، بل هبط إليهم وخاطبهم بلغتهم وحمل إليهم الفقه وسلمهم مفاتيحه ودخلت جماهير الناس فى الغرب ميادين العلم والفكر ودخل العلم والفكر حياة الجماهير ؛ فأصبحت جماهير متعلمة مفكرة وصانعة للتاريخ نتيجة لذلك .

بينما اقتصر صنع التاريخ عندنا على أهل الحكم وأهل الفقه ، فتوقفت هنا حركة التاريخ وتحركت هناك ، وصيحة الفقيه اللاهوتى مارتن لوثر حطمت سلطان الكنيسة المطلق وزعزعت عرش امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فتوالت الحركات الفكرية والسياسية فى الغرب ، وصيحة مارتن لوثر هى التى أنشأت كل مذاهب البروتستانتية وعلى أثر ذلك بدأ عصر الأنوار ، والمراد أنوار الفكر التى أنارت الطريق للشعوب ، وبعد مفكرى عصر الأنوار جاء الموسوعيون ثم السان سيمونيون ، وكل هؤلاء لم يكفروا بالله ، ولا هم خرجوا عن الطريق وإنما هم قالوا : إن الله منح الإنسان العقل وهو نعمة الله الكبرى ، وبالعقل يصل الإنسان إلى الله سبحانه وإلى الإيمان الصحيح به ، وكل تقدم الإنسان مرهون باستخدامه عقله والعقل المتفتح المتحرك هو الطريق إلى الرخاء والسعادة ، والعقل الجامد الساكن ينتهى بالإنسان حتماً إلى السكون والموت ، والمفكرون ينبغى أن يكونوا الطلائع فى عصر الأنوار ، فقد رفعوا مكانة العقل إلى نفس المستوى الذى رفعه إليه القرآن الكريم ، والمفكرون فى الغرب ساروا فى طريق لوثر ، اتجهوا إلى الجماهير ؛ لأنها مستودع القوة والحضارة وهى صانعة التاريخ أو ينبغى أن تكون صانعته ، أما أهل العلم عندنا فقد نظروا إلى الجماهير نظرة تَرَفُّع واستكبار واعتبروها طغامًا لا حق لها فى أن تفكر ، وقد روينا فيما سبق عبارة لأحد أئمة الاعتزال

قال فيها : إن صلاح المجتمع يكون بابتعاد العامة عن العلم ؛ لأنهم إذا تناولوه أفسدوه .

أما مارتن لوثر فقد سار فى طريق يخالف طريق أهل العلم والفقه عندنا ، وهو عندما كتب وثيقة اعتراضه المشهور على بيع صكوك الغفران وعلقها على باب كنيسة وتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ؛ تجمع الناس حوله وسألوه أن يشرحها لهم لأنها كانت باللاتينية ، ولو أن مارتن لوثر كان يفكر بطريقة أهل العلم عندنا لقال لهم : أنتم عامة وسوقة ولا دخل لكم بمسائل الفقه والفكر ؛ لأنها فوق مستوى عقولكم ، ولكن لوثر أسرع فترجم الوثيقة إلى الألمانية وقام بطباعة النصين ووزعهما على الناس فى نفس الوقت الذى أرسل فيه نسخًا باللاتينية إلى البابا والكرادلة والأساقفة والقساوسة ، وبهذا العمل أصبحت حركة مارتن لوثر حركة شعبية ، وما دامت قد أصبحت شعبية فقد أصبحت نافعة لأن الذى غاب عن ذهن المتكلمين والفقهاء هو أن جماهير الناس التى سموها بالعوام تتميز بإدراك لطيف لحقائق الأمور لا يصل إليه العلماء المتكلفون ، والجماهير بطبعها تميز بالفطرة بين ما ينفعها وما يضرها ، بين من يحبها ومن لا يحبها ، وإدراك الجماهير من هذه الناحية أعمق من إدراك العلماء المتحذلقين وأى فكرة تصل إلى الجماهير وتدركها وتؤمن بها تصبح من تلقاء نفسها حركة إنسانية وأى فكرة يقتصر فهمها على أهل الذكاء العادى تصبح فكرة صالونات ومجالس منكمشة فى ذاتها مقتصرة على أصحابها وتموت ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الآية ٢٨ من سورة سبأ ﴿ **وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا ونَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ولم يقل سبحانه : إنه أرسله لخاصة الناس أو للعلماء . والعرب البسطاء الأميون الذين قرأ عليهم رسول الله ﷺ آيات القرآن لأول نزولها ، فهموها وأحسوا بها بأكثر مما فهمها الفقهاء ، بدليل أن أولئك البسطاء تحركوا بآيات القرآن وساروا تحت رايته وفتحوا بها الدنيا وأدخلوا الملايين فى الإسلام ، أما العلماء المتكلفون المترفعون فقد استعملوا القرآن لتكفير غيرهم من الناس ..

ولم يقف مارتن لوثر عند هذا فى تحويل حركته إلى حركة شعبية أى حركة إنسانية نافعة ، بل اتجه فى خطابه إلى المفكرين العلمانيين المثقفين ؛ لأنهم يعرفون كيف يستخدمون العقل فيما يصلح أمر الناس ، فى حين أن السياسيين مثلاً يستخدمون عقولهم فيما ينفعهم ويصل بهم إلى القوة والسلطان ويقوى مركزهم فيهما ، وإذا

صرف أهل الفكر جهدهم فى السياسة ـ دون تطلع إلى الاشتغال بها ـ كانوا بركة على أممهم ؛ لأنهم ينيرون الطريق للأمة وقادة الأمة وينشئون فكرًا سياسيًّا سليمًا يفتح عيون الناس إلى ما لهم وما عليهم ويكشف لأهل السياسة حقيقة كبرى تغيب عن الكثيرين منهم ممن يتعرضون للغرق فى صراع القوة والسياسة ، وإذا غرق رجال السياسة فى هذا الصراع اشتدت أنانيتهم وأصابهم عمى البصيرة وفقدوا التوازن وتردوا فى أخطاء قاتلة لهم ومؤذية لأممهم ، وتلك هى الوظيفة العظيمة التى قام بها كتاب سياسيون اجتماعيون من أمثال « جون ستيوارت ميل » فى كتابه عن الحرية و « آدم سميث » فى كتابه الخالد عن ثروة الأمم و « مونتسكيو » فى دراسته الكبرى عن القوانين التى تحكم سير الأمم والجماعات فى كتابه (روح القوانين) و « جان جاك روسو » فى كتابه الصغير الضخم (العقد الاجتماعى) و « دالا مبير » وإخوانه من الموسوعيين الذين فتحوا للبشر أبوابًا بلا حدود من الفكر السليم وخاصة «هلفيسيوس» الذى لفت أنظار الناس إلى ما سماه بالسعادة العامة La feliciti Publique و «فولتير» الذى نفذ بفكره وسخريته اللاذعة إلى مواضع الضعف والسخف فى المؤسسات السياسية السابقة على زمانه والقائمة فى عصره ، وكانت تلك المؤسسات جميعًا تقوم على أسر مالكة تعتمد على عسكريين يمتصون دماء الناس دون أن نرى منهم إلا الخيلاء والأخطاء الفادحة ، وعلى سياسيين هم لصوص من ناحية ، وحشم سلاطين من ناحية أخرى ، وعلى رجال دين يستخدمون جاه العقيدة فى السيطرة على الجماهير وتضليلها وابتزاز الملوك والأمراء وإنشاء دولة الكنيسة إلى جانب دولة السياسة وكل منهما تخدم الأخرى ..

ومارتن لوثر ـ كما قلنا ـ كان رجل دين ولكنه تنبه إلى الحقيقة الكبرى التى غابت عن رجال الدين فى عصره ، وهى أنه من الخطأ أن يتصور رجال الدين أنهم أصحاب علم إلهى خاص بهم ، هم وحدهم أصحابه والمتمتعون بخيره ، وأنهم المتفردون بالعلم من دون الناس وعلمهم هو اللاهوت أو العلم الإلهى ، ولغة هذا العلم الإلهى هى اللاتينية وهى الستار الكثيف الذى كان يخفى عن عيون الناس كل المساخر والمهازل التى ترتكبها الكنيسة ورجالها باسم الدين ، ومن بينها بيع صكوك الغفران ولوثر عندما أعلن احتجاجه على الكنيسة أثار خمساً وتسعين قضية من قضايا خداع الكنيسة وتحالفها مع رجال السياسة على جماهير الناس ، وأحدث صدعًا هائلاً فى بناء الزيف

الذى أقامتـه الكنيسة ، ومن خلال هذا الصـدع نظرت الجماهير فرأت من الجرائم التى ترتكب بـاسم الـدين مـا هالها ، وفى رسـالة تـالية كتبها لـوثر بـاللغة الألمانيـة يقول للجماهير : ليس هناك ـ من وجهة نظر الدين ـ علماء وجهلاء أو أمراء وسوقة أو كرادلة وأساقفة أغنيـاء وأقوياء يتوسطـون بين الله والناس ويملكون مفاتيح العلـوم ، وعامة مستضعفة جاهلة عليها أن تتلقَّى العلم الدينى من أيـدى أربابه وأصحابه ، فإن الدين نعمة الله الكبرى على البشر أجمعين مثلها فى ذلك مثل ضياء الشمس ، وكما أنه ليس من حق إنسان أن يبيع ضـوء الشمس للناس فليس من حق بابا أو كـردينال أو أسقف أن يزعم أنـه متفرد بالعلم الإلهى وأن الله أعطاه الحق فى بيع نـور الله لجماهير الناس ؛ لأن الدين للناس كافة ، والناس كافة ينبغى أن تفتح أمامهم سبل الوصول إلى العلم بالدين لأن الدين سـهل ، والإنسان البسيط الذى يقول عنه رجال الدين : إن مداركه لا تصل إلى حقـائق الإيمان هو أقـدر بالبصيرة الهاديـة على الـوصول إلى الهدى من أولئك الـذين يزعمون أنهم وحدهم يملكون مفاتيح العلم والهداية .

لهذا كله ، وبشـجـاعة نادرة ، اتجه لـوثر إلى جماهير الناس يخاطبهـا بلغتها وهى الألمانية ، وكـانت الألمانية إذ ذاك لغـة عوام ذات لهجـات ، فهى لا تكتب ولكن لوثـر بدأ يكتب بها ؛ لأنها اللغـة التى يفهمها النـاس وقبل أن يخطـو هذه الخطـوة كتب رسالـة طبعها ووزعهـا على رجال الـدين الألمان يقول لهم فيهـا : إنه ليس مـن حق بابـا روما وكرادلتـه وأساقفته وكلهم من الإيطـاليين أو من غيرهم من خدم الكنيسـة أن ينفردوا بالعلم والتكلم فى الدين من دون غيرهم من البشر وعنوان الرسـالة : اللاهوت الجرمانى The Ologia Germannica وأعقب ذلك برسـالة اسمها (فى حـرية رجل مسيحى) : Von Der Freiheit Eines Christleschen Menschen وقـد نشرت وذاعت بين الناس فى ديسمبر ١٥٢٠ ، وأدرك النـاس منها أن كل مـا يزعمـه رجال الـدين من أنهم وحدهم القـادرون على فهم الدين وتفسير قـواعده وحقـائقه بـاطل .. وبدأت الجماهير تتحرك وتلتف حول هذا الرجل الذى يغـامر بحياته ليفتح أبواب العلم ورحمة الله لهم ، ووجد لوثر أن أمراء الألمان مترددون خائفون من الكنيسة وسلطانها وتأييد الامبراطور لها ، فكتب بـالألمانية أيضـاً رسالـة فى الغايـة من الإقدام عنـوانها : إلى أشراف الشعب الألمانى A de Christlichen Adel Deutscher Nation وعلى إثـر ذلك اجتمعت رياسة جماعـة الرهبان الأوغسطينيين وقررت فصل لوثر وطـرده من الجماعة ، وكان

لوثر راهبًا أوغسطينيًا يعيش فى دير أوغسطينى فطردوه من الدير وألقوا به فى الطريق وحيدًا فقيرًا .

وفى ١٧ أبريل ١٥٢١ جمع الامبراطور شرلكان مجلس الدولة فى مدينة « ورمز » فأصدر بياناً يستنكر فيه كل ما قاله لوثر فى نقد الكنيسة والبابوية ورجال الدين ، ويقرر أن لوثر لا بد من القبض عليه ومحاكمته وعقابه إلا إذا تاب وندم ورجع عن كل آرائه ورفض لوثر وطالت المناقشة والرجل الفقير الوحيد الأعزل قال كلمته المشهورة : هذا موقفى ولا موقف لى غيره Hneir Stehe Ich . Nhtics . Anderes Kann Ich Tun وطردوه من المجمع ، ومن حسن حظه أنه كان هناك نفر من أصدقائه الذين تحمسوا لآرائه وأكبرهم وأشدهم حماسة له يوهان إيك . Johann Eck وفى نهاية الجلسات صاح لوثر : إن كل قرارات هذا المجلس الامبراطورى باطلة مثلها فى ذلك مثل قرارات المجمع الكنسى ، وخرج من قاعة المناقشة رافعًا يديه إلى أعلى كأنه يقول : إنه فعل ما أملاه عليه ضميره والله يتولاه ، وما كاد يغادر المكان حتى اختطفه بعض أنصاره وأخذوه إلى معتزل آمن فى قلعة وارتبورج قرب مدينة إيزنباخ ، وكان أمير الناحية وهو فردريك العاقل من أنصاره فتولى حمايته .

وفى هذا المعتزل قام لوثر بعمل يعد من معالم التاريخ الحضارى والفكرى فى الغرب كله وفى ألمانيا خاصة وهو ترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية بمساعدة بعض أصدقائه وخاصة ميلانكتون Melanchthon وقد طبعت هذه الترجمة فى سبتمبر ١٥٢٢ ثم أكب على ترجمة العهد القديم إلى الألمانية أيضًا ، وقد كانت الترجمة هذه المرة من العبرانية وتداولها الناس ، ولكنها لم تنشر إلا فى سنة ١٥٣٤ ، ومن المعروف أن الكتاب المقدس المسيحى يتكون من قسمين : قسم كبير وهو العهد القديم أو بتعبير أوضح شهادة من العهود القديمة السابقة على بشارة المسيح عيسى ابن مريم Old Testament وفيه تواريخ أنبياء بنى إسرائيل وما بشروا به وما جرى لهم ولبنى إسرائيل والبشرية عامة ، وهذا القسم كله يعتبر فى مجموعه وعدًا من الله بتخليص البشر من خطاياهم وأولها خطيئة آدم وغضب الله عليه وإخراجه من الجنة ، والقسم الثانى هو تحقيق وعد الله بتخليص البشر بإرساله عيسى ابن مريم كلمة الله ، يحمل إليهم بشارة الخلاص ، ونحن المسلمين نقول : إن هذا الخلاص جاء فى صورة كتاب أوحاه الله

إلى عيسى كما أوحى التوراة إلى موسى ، ولكن عامة المسيحيين يقولون : إن حياة عيسى ابن مريم نفسها وخلقه من كلمة الله التى امتزجت بدم السيدة مريم العذراء هى لباب رسالته وتبشيره الناس بالخلاص من لعنة الله لكل من صدق قوله واتبعه وحصل على الخلاص منه بالتعميد على يده أو على يد أحد حوارييه ويقولون كذلك : إن تمام حلول بركة هذا الخلاص كان بصلب المسيح وقتله وشراء خلاص البشر بدمه ، وبشرى الخلاص هذه تسمى باللاتينية Evangelium وهو الإنجيل ، فالإنجيل أو تحقيق البشرى عندهم ليست كتابًا ، وإنما هى حياة المسيح نفسه ثم موته ، والذى لدينا عن حياة المسيح هو ما رواه عنه الحواريون ، وكلها روايات صغيرة قصيرة لا تزيد الواحدة منها عن سبعين أو ثمانين صفحة تضم ما وعوه من أخباره وخطبه وأقواله منذ خرج للتبشير علانية عند بحيرة طبرية ومسيره منها إلى القدس حيث قبض عليه أحبار اليهود ورجال الدولة الرومانية وجروه حافيًا مكبلاً بالأغلال إلى المعبد أو الكنيس حيث أدانوه وحكموا عليه بالموت ثم كانت ليلته الأخيرة فى سجن المعبد حيث كان العشاء الأخير لعيسى ابن مريم وحوارييه ، ومن بينهم يهوذا الإسخريوطى الذى وشى به إلى السلطات ، ثم صلبه وموته على الصليب فى اليوم التالى ، وكانت الروايات أو الأناجيل عن ذلك كله كثيرة جدًا ولكن مجامع الكنيسة اعتمدت منها أربعة ورفضت البقية واعتبرتها زيوفًا أو تلفيقات Apocrypha وهذه الأربعة هى أناجيل متى ولوقا ويوحنا ومرقص ، وأنت تجدها جميعاً فى كتاب واحد ولم تكتب كلها باللاتينية ، بل بعضها بالسريانية أو العبرانية وبعضها باللاتينية ، ولكنها ترجمت كلها إلى اللاتينية عدا إنجيل مرقص الذى كتب أصلاً باللاتينية وهو أبلغ الأناجيل لغة وأسلوبًا ؛ لأن مرقص أو ماركوس كان من أوسع الحواريين علماً ، وقد كتب إنجيله فى مصر واحتفظت به الكنيسة المصرية الإسكندرانية التى تسمى لذلك بالمرقصية ، ولفظ كنيسة تحرف فى لغة أقباط مصر فأصبح كرازة ، وكنيستنا المصرية لهذا تسمى بالكرازة المرقصية ، وكلا لفظى كرازة وكنيسة محرف من اللاتينية Ecclesia وهى ليست مبنى الكنيسة وإنما معنى الإكليزيا أو الكرازة فى الأصل جماعة المسيحيين ، ثم استعمل اللفظ للدلالة على مكان اجتماع المسيحيين وهو الكنيسة .

وهذه كلها معلومات ينبغى أن نعرفها لكى نكون على بينة من أمرنا عندما نتكلم عن المسيحية والمسيحيين حتى يقوم بيننا الفهم والتفاهم والحوار الهادىء البناء الذى

أمر به الله سبحانه وتعالى عندما قال فى سورة النحل بعد أن تحدث عمن سبق محمدًا ـ صلوات الله عليه ـ من الرسل ، ونص على إبراهيم عليه السلام ودينه وهو الحنيفية الإسلامية ثم أشار إلى من انحرف عن ملة إبراهيم من أهل الأديان ثم قال بعد ذلك : ﴿ ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والموعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بالتِى هِىَ أَحْسَن إن ربك هو أَعْلَمُ بمن ضَلَّ عن سَبِيلِهِ وهو أعلم بالمهتدين ﴾

(سورة النحل : ١٦ / ١٢٥)

وأنا الآن أُحدث القارىء عن لاهوتى مسيحى وكيف تصرف وماذا عمل ليخدم دينه وقومه دون أن يغادر قاعدته الدينية ، وسيرته وعمله تزيدنا علماً وفهماً بما عمل أهل العلم عندنا وكيف تصرفوا ليكون حكمنا عليهم وتقديرنا إياهم صائبًا سليماً ، لأن الأمور تزداد وضوحًا بالقرائن والأمثال والأنداد ، ولوثر ينتمى إلى جماعة أهل الغرب وهم السابقون علينا فى ميدان العلم والفكر والحضارة ، وهم لم يسبقونا عبثًا بل هم سبقونا ؛ لأنهم ساروا فى طريق أسلم من الطريق الذى سرنا فيه .

أتعرف كيف ترجم لوثر نص الكتاب المقدس المسيحى وفى أى لغة صاغه ؟ إنه لم يتعالم ولم يتفيهق بل نزل إلى دنيا الناس أو العامة وكتب بلغتهم ، ففى سنة ١٥٣٠ كتب رسالة عن اللغة التى تخيرها لصياغة الترجمة قال فيها : عليك إذا أردت أن تترجم وتتخير الألفاظ التى ستستعملها فى الترجمة أن تلقى بالأسئلة إلى الأمهات فى البيوت ، إلى الأولاد فى الشارع ، إلى الناس العاديين فى الأسواق وتصغى إلى إجاباتهم وانظر إلى شفاههم وهم يتلفظون ثم تبدأ فى الترجمة بعد ذلك ، ومعنى ذلك أن هذا الرجل ترجم الكتاب المقدس إلى لغة من يسميهم أصحابنا المتكلمون بالعوام ـ بتعبير آخر ـ لقد نزل الرجل إلى الأسواق وأخذ لغة السوقة لكى يكتب لهم بالأسلوب واللفظ الذى يقبلونه ويفهمونه ، وهل تتصور أن اللغة التى كتب بها بعد ذلك كانت سوقية أو حوشية ؟ استمع إلى رأى الأستاذ هربرت وولف أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ماريورج فى ألمانيا : « إن عمله الأدبى يقوم على اختيار ممتاز للألفاظ وتخير المستوى المناسب للأسلوب والوقع الشفوى للكلام والجرس اللغوى المسوق فى نغم لطيف » إذن فجمال أسلوب لوثر يرجع إلى أنه استلهم العامة والسوقة فى اختيار ألفاظه وصياغة كلامه ، وهذا كلام يبدو غريبًا جدًّا لأهل الأدب عندنا ممن تعودوا الترفع على العامة واستصغار

شأنهم واحتقار كلامهم ، وهذا كله ميراث رَذِلٌ سيءٌ أخذناه عن أهل الأدب السابقين علينا جيلاً عن جيل ، فقد كانت أجيال أهل الفكر عندنا تتخير ألفاظها من « صهاريج اللؤلؤ » كما فعل الشيخ توفيق البكرى فى أيامنا هذه ، وحسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى اللذان يقفان فى آخر خط البلاغة التقليدية الذى يقف الجاحظ فى أوله ، كانا يعانيان فى اختيار اللفظ الذى يسمونه أنيقًا ويتكلفان فى صياغة العبارات كأنهما على كرسى التوليد ، فكانت النتيجة كتبًا خاصة لا يقرؤها إلا الخاصة ومعانى ضالة متصيدة من بطون المعاجم بجهد بالغ ، وما عرفنا اللغة العربية السهلة الجميلة إلا على أيدى جيل طه حسين والعقاد والمازنى ممن أخذوا بمذاهب أهل الغرب فى إنشاء أساليبهم الكتابية ، وأهل الغرب يتحرون الوضوح والبساطة والواقعية فى الكلام ، ولهذا فقد كتبوا أدباً يقرأ وأنشأوا فكرًا ينفع وتكلموا بلسان أقوامهم فارتفعت لغة أقوامهم ، وبارتفاع مستوى الكتابة ارتقى مستوى الفكر .. والفكر هو مفتاح كل خير وتقدم وحضارة ، وإذا أردت أن تفهم عنى ما أريد حق الفهم فاقرأ شيئًا من نثر توفيق الحكيم ونجيب محفوظ تجد أن كليهما يأخذان أفكار الناس العاديين أى العوام وألفاظهم ثم يصوغانها بذوق رجل الفن المثقف فتكون من ذلك أصدق لغة وأصفاها وأقربها إلى القلوب .

وإذا أنت سألتنى لماذا ينحط مستوى اللغة العربية اليوم ؟ يكون جوابى : إن بعض الأسباب ترجع إلى قلة تراثنا من اللغة الصادقة السهلة التى تعبر عن أفكار من كان المتحذلقون يسمونهم بالعوام ، وأنا لا يخطر ببالى قط أن أقرأ الجاحظ لآخذ منه الأسلوب ؛ لأن أسلوب الجاحظ لا يخاطبنى بل هو يخاطب الجاحظيين مثله ، وهو أسلوب طريف ، ولكنه ليس إنسانيًا ؛ لأنه أسلوب رجل يتعالى عن عامة الناس ويعتبرهم أحط منه منزلة .

ولوثر اللاهوتى الذى قام بهذا العمل العظيم أنشأ بترجمته تلك وبكتاباته الكثيرة لغة كاملة كانت توصف بأنها عامية فأصبحت بفضله علمية وأدبية ولاهوتية ، وهو باللغة الألمانية التى وضع أساسها البلاغى أضاف لغة عظيمة من لغات الفكر والعلم فى عصرنا هى اللغة الألمانية ، وقد كان الناس فى الغرب يقولون : إن اللغتين الوحيدتين ذواتى الأدب الرفيع هما الإنجليزية والفرنسية ، فجاء فولفجانج يوهان جيته فكتب بلغة لوثر فارتفع مقام اللغة الألمانية إلى لغات الغرب الأدبية الفكرية الكبرى ، ولوثر ثم

جيتـه ثم شيللر وبقيـة أدباء الألمان أنشأوا الأسـاس اللغوى الفكـرى لوحـدة الشعب الألمانى ، ومثل هذا فعل دانتى الليجيرى عندمـا ترك اللاتينية وكتب كوميـديته الإلهية بالإيطاليـة ، وميجيل ترفانتس عندمـا رفع اللغة الأسبانية إلى مصاف اللغـات الفكرية العالمية الكبرى . فأين من هذا كله فكر المتكلمين ولغة المتفيهقين والمترفعين ؟

* * *

سأقف بك هنـا عند رأى الجاحـظ وبقية المتكلمين ـــ عـدا قلة منهم مثل أبى بكـر الأصم ـ فى العامة وفكـر العامة وانحطاطه وعدم قدرتهم على الـدخول فى مسائل الفكر والسياسة .

والجاحظ وأمثالـه ـ بخلاف مارتن لـوثر ـ كـانوا يفكرون تفكير الكرادلـة الذين حاربهم لوثر وهدم عروشهم وكانوا يقولـون : إن هناك خاصة ـ هم منها ـ وعامة هى جمهور الناس وأهل الأسـواق ، فإذا كان هناك أمر هام مثل اختيـار الإمام ، فإن الذين يختارونه هم الخاصـة وحدهم ولا يجوز بحال أن يسمح للعامة بالـدخول فى مثل هذا الأمر الخطير مع علمهم بأن المرة الوحيدة التى اختار فيها المسلمون إمامهم اختيارًا حرًا صحيحًا فى مجلـس حر كـان فيه أخذ ورد وتبـادل آراء كان انتخـاب أبى بكـر فى بيعة سقيفة بنى سـاعدة والذين حضروا اجتماع السقيفة كـانوا عامة المسلمين ، فقـد كان الاجتماع فى مكان فسيـح لا أبواب له إنما هـى المساحة المسقـوفة بعـريش من سعف النخل التى كانـت قبيلة بنى ساعـدة تجتمع فيها ، وكـانت لكل قبيلة من قبـائل المدينة سقيفتها فى منازلها ، وكان الاجتماع عفوياً ، حضره الناس جميعاً ، دون أن يكون هناك خاصة أو عامة ، ومعظم الحاضرين كـانوا أميين لا يكتبون أو يقرأون فكان اختيارهم أصح اختيار وأسلمه ، وأبو بكر دون شك هو أعظم خلفاء الإسلام وأصلحهم بشهادة عمر نفسه .

ومع ذلك فإن الجاحظ وأصحابـه يقولون لك : إن بيعة أبى بكـر كانت فلتة .. أى مصادفـة لا يقاس عليها ، واستمع إلى كلامـه وكلام القاضى عبـد الجبار أبى الحسن الأسـد أبادى المعتـزلى صاحب « المغنى فى أبـواب التوحيـد والعدل » يقـول الجاحظ فى كلامـه عن العامة : أمـا الأمر الذى يعـرفونه فـالتنزيل المجرد (أى قـراءة القرآن دون تفسير أو فهم) وجملة الشريعة (أى دون تفسيرها لأن عقولهم لا تصل هذا المستوى)

ومـا جلّ من الخبر واستفـاض وكثـر ترداده على الأسماع وكـرروه على الأفهـام (أى الأخبار العامة والأفكـار البسيطة العادية التى تتكرر على ألسنة النـاس كل يوم) وأما الـذى يجهلون (وتعـرفه الخاصـة وحدهـا) فتأويل المنزل وتفسير المجمل وغـامض السنن (أى الأحاديث النبوية) التى حملتها الخواص عن الخواص من حملة الأثر (أى الحديث) وطلاب الخبر . مما يتكلف معرفته ويتتبع فى مواضعه ولا يهجم على طلبه ولا يقهر سمع القاعد عنه .. (رسالة العثمانية للجاحظ ص ٢٥٣) .

ثم يتفضل الجاحظ فيقول لنـا : لماذا يستبعد العامـة عن الكلام فى مسائل يـراها عالية لا يجوز الكلام فيها إلا للخاصة أمثاله « إذ العامة لا تعرف معنى الإمامة وتأويل الخلافة ولا تفصل بين فضل وجـودها ونقص عـدمها ، ولأى شىء أريـدت ، ولأى أمر أملت ، وكيف مأتـاها والسبيل إليهـا » بل هى مع كل ريح تهب ونـاشئة تنجم ولعلهـا بالمبطلين أقر عيناً منها بالمحقّين .. (رسالة العثمانية ٢٥٠) ، ومن مأثور كلام الجاحظ فى هذا المعنـى : فصلاح الـدنيا وتمام النعمة فى تـدبير الخاصة .. (نفـس الرسـالة ص ٢٥٣) ويقول : إنما يلزم النـاس الأمر فيما عرفوا سبيلـه وليس للعوام خاصـة معرفة بسبيل إقامة الأئمة فيلـزمها أمر أو يجـرى عليها نهـى .. (وانظـر : الدكتور محمد عمارة فى كتاب :المعتزلة وأصول الحكم ص ١٢٦ وما يليها) .

* * *

والعامة كما رأيناهم ـ تاريخيًّا ـ المستضعفون فى الأرض ، الذين أتى الإسلام ليرد إليهم الأمور وليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، وتلك هى حكمة مجىء الإسلام الكبرى فى تطور تـاريخ البشر ، إنه الفرقان بين عصـور الخاصة من المستبدين بأمـور الناس وفكـرهم وأمـوالهم ، والعامـة الـذين هم عيـال ، لا رأى لهم ولا ينبغى أن يحسب لهم حساب إذ لا عقل لهم ولا فهم ولا يجوز أن يؤذن لهم بإبداء الرأى فى عظائم الأمور !

لهذا الاتجاه الفكرى غير السليم ـــ البعيد عن منطق التـاريخ ، الغريب عن الإدراك الحقيقى لطبيعة الإسلام والدنيا والناس ـ انتهى فكر المعتزلة إلى أن جعلوا أنفسهم أداة السلطان الغاشم يستذل بهم أهل الصلاح ويستحل بهم دماء الأبرياء .

* * *

القَرنُ الهِجرِيُّ الثَّالِثُ
رَبِيعُ الفِكرِ العَرَبِيّ

لكى أعطيك مثالاً من نظرة المعتزلة للفكر ومقامه أختم هذا الكلام عنهم بحكاية تروى عن شيخ من أئمة شيوخهم هو إبراهيم بن سيار النظام ، فقد حكى أنه دخل وهو صغير على الخليل بن أحمد فقال له : صف هذه الزجاجة . فقال : بمدحٍ أم بذمٍّ ؟ فقال له : بمدح . فقال كلاماً فى غاية البلاغة فى مدحها .

فقال له : فذمها . فذمها بأبلغ لفظ وأنقه (أحمد أمين . ضحى الإسلام ٣/١٠٦ - ١٠٧) ، فالمسألة عندهم كانت عبثاً فكريًا ولعباً بعقول الناس وغروراً بأنفسهم ، وعلى مثل هذا الحط الفكرى لا يقوم شىء صالح ، ولا يتأتى منه إلا هباء .

قبل أن نستطرد إلى الكلام عن الفقه وهو قاعدة تنظيم المجتمع الإسلامى ، والفقهاء وهم العمد الحقيقية لعمران عالم الإسلام وأساس ما بقى سليماً من أعمدته ، نقف هنيهة عند القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لنرى ما الذى قطعناه من الطريق وما بقى لنا منه ، ولنستطلع أحوال العالم الإسلامى بعد أن قطع قروناً هجرية ثلاثة من قيام أمة الإسلام .فقد كان ينبغى بناء على ما عرفنا من سلامة النشأة الأولى لأمة الإسلام أن تصل إلى درجات من الاستقرار والرخاء والتقدم لم يسبقها إليها سابق ، فهذه الأمة بدأت طريقها ومعها كل عوامل النجاح وعناصره : كتاب الله وسنة نبيه . كتاب الله هو هداية وحكمة وتشريع ووعظ وتجارب أمم بادت أو اضمحلت ؛ لأنها خرجت عن المنهج ، وهو كذلك جماع مكارم الأخلاق ومنهج فكرى لمعرفة مذاهب الخير ، وأما سنة نبيه فهى تطبيق لشرع الله ومنهجه وهى إلى جانب ذلك تشريع قويم لأن رسول الله ﷺ مشرع بنص القرآن فقد قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ **وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوه ومانَهاكُمْ عنه فانتهوا** ﴾ .

أقول : إننا كان ينبغى أن نكون فى نهاية القرون الثلاثة الأولى قد وصلنا إلى أحسن ما انتهى إليه العالم من علم وقوة ورخاء ؛ لأننا بدأنا طريقنا وجمعنا العدة الكاملة لكل توفيق ، فإذا كان أمرنا قد انتكس وساءت بنا الأحوال ، فنحن المسئولون ولا ريب ، وقد

بينت لك آنفًا كيف خرجنا عن المنهج ولم ننشىء ـ فى الناحية السياسية على الأساس الذى تلقيناه وتركنا هدى الله وسنة نبيه ومضينا نحكم بعهد أردشير وأساليب الظالمين ، وعهد أردشير كتاب كتبه أردشير بن بابك كسرى فارس لابنه يبين له فيه نهج السياسة الذى ينبغى عليه اتباعه ليسود الناس ويهيمن عليهم وينفرد بالخيرات دونهم ، وتلك فى حكمة الفرس هى السياسة ، فهى فى عرفهم كذب ومين وخداع وتضليل واستغلال وإرهاب ، وقد أراد الله بالإسلام أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

والمستضعفون هم الأشقياء العاملون فى عمارة الأرض ؛ لأن الله عهد إلينا فى عمارة الأرض وإصلاحها ، والإنسان الصالح هو العامل فى عمارة الأرض فكل عامل فى عمارة الأرض رجل صالح وهو من المستضعفين الذين منّ الله عليهم بالإسلام ليجعلهم الأئمة والوارثين للأرض ، والعامل هنا هو العامل بذهنه والعامل بيده ، وكل هذا الطراز من العمال كانوا أشقياء عصور ما قبل الإسلام وضحياها ، فجاء الله بالإسلام بشرى لهم ليكونوا وارثى خيراتها وأصحاب الأمر فيها بعدل الله على منهج الله .

والذى عملناه خلال القرون الثلاثة الأولى كان كله مناقضًا لما أراد الله وخارجًا عن منهجه ، فبدلاً من أن نسوس أمورنا بأسلوب جماعة الخير والشورى كما كان حالنا أيام الرسول والشيخين انقلبنا على أنفسنا وحولنا أمة الشورى إلى خلافة الاستبداد والظلم وأصبح تاريخنا السياسى صراعًا على الملك الذى سميناه خلافة وأثبتنا بذلك أننا ورثة سفهاء ، والسفاهة جاءت من أننا عندما صارت إلينا مواريث الأمم عملنا فيها بعهد أردشير وأساليب الظالمين لا بعهد الله ، وعهد الله هو ميثاقه الذى أخذه علينا وهو حبله الذى أمرنا بأن نعتصم به جميعًا ولا نتفرق ، فما كان لنا هَمٌّ إلا ترك حبل الله والتفرق فضاع أمرنا بددًا وصرنا أسوأ من أمم الجاهلية .

وأقول : إننا لا بد لنا من وقفات عند مراحل معينة من هذه الرحلة فى تاريخ الفكر والمجتمع الإسلاميين ، وهى رحلة طائر يرى الأمور من فوق فتستبين الخطوط الرئيسية دون التفاصيل ، وفى أثناء هذه الرحلة نقف كذلك بين الحين والحين عند رجال يعدون معالم واضحة فى تاريخ الفكر ونقلات متميزة فى مسيرته كما وقفنا عند الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وأبى نواس .

وستكون لنا وقفة ثانية مثل هذه عند القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وثالثة عند القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى نتأمل فى كل وقفة منها حصاد القرون قبل أن يدخل عالمنا الإسلامى فى العصر الحديث ويتبدل من حوله ـ وفيه ـ كل شىء .

ونحن نقف عند هذا القرن الثالث الهجرى ؛ لأنه ربيع الفكر الإسلامى والربيع فى أعصر الحضارة هو عصرها الذهبى وقد تعودنا أن نقول : إن القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى لحضارة الإسلام ، وهذا تقدير غير سليم ؛ لأن القرن الثالث الهجرى هو قرن إرساء قواعد العلم وتدفق الملكات وتدافع الإنتاج الفكرى ، فهو قرن القوة والشباب والربيع ، أما القرن الرابع فهو صيف الفكر الإسلامى ، والصيف هو فصل الثمر والحصاد ، وبعد حصاد الثمار لا يبقى إلا الهشيم المنذر بالخريف ثم الشتاء .

وفى القرن الرابع الهجرى دخلنا فى عصر الترف المفسد وهو ما يقابل فى المصطلح الغربى Earrysrin وهو يختلف عن الوفرة والترف الصالح ، وهما يقابلان مصطلحى Prassperity A Iundonce وابن خلدون عندما استعمل مصطلح الترف وحمل عليه كان يقصد الترف المفسد ؛ لأن الترف الصالح لا ضرر فيه بل هو طلبتنا جميعاً ، ومن منا لا يسعى للمسكن الطيب والأثاث الفاخر والسيارة الجميلة والنعمة الظاهرة ؟ إنما الترف المكروه هو ترف الجشع والكسب الحرام والاستزادة من الخيرات فى غير ضرورة على حساب الآخرين .

وابن خلدون عندما ينكر الترف المفسد ويقول : إنه إيذان بتدهور العمران وفساد المجتمع يلتقى هنا مع أوسفالد شينجلر Oswaed Jengler الذى قال : إن الحضارة بداية الفساد والمدخل إلى مغيب شمس الغرب Untergany Das Abend Iandes ويلتقى أيضًا مع أرنولد توينبى فى قوله : إن حضارة الغرب دخلت دور التدهور خلال عصر الاستعمار والعدوان على الحقوق وإهدار القيم ونهب الدنيا لبناء ثروات الغرب ومدائنه وقصوره .

ولابن خلدون هنا عبارة يمر بها القارىء دون تفكر وهى لباب اللباب فى فهم تاريخ البشر وحضارته عند الماضين . قال فى الفصل الثامن عشر من الباب الثانى من المقدمة تحت عنوان « فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وإنها مؤذنة

بفساده » قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية ، وأن الحضارة غاية للبداوة ، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك ودولة له عمر محسوس (محسوب) ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات (الكائنات) عمرًا محسوسًا وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية فى تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضًا كذلك ؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها ، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها ، والحضارة كما علمت هى التفنن والترف واستجادة أحواله (هنا يريد ابن خلدون الإسراف فى الترف وهو الذى يقابل الفساد Carra Jtian كما قلنا آنفاً) والكلف بالصنائع المنشأة التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل .. (المقدمة ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥) .

وهذه كلها معان وآراء تغيرت الآن نتيجة لاتساع نطاق العلم وتطور الفكر وأثر ذلك فى طبائع البشر والدول وأعمارهم ، ولكننا نتكلم عن العصور الماضية عندما كان مستوى العلم الطبى وعلوم الحياة عاجزًا عن حماية الإنسان من الأمراض ، فكان الرجل إذا بلغ الأربعين من عمره اكتهل وبدأ يميل نحو الشيخوخة ، والدولة الإسلامية كان ينبغى لها أن تظل فى ربيع العمر من القرن الثالث إلى السابع أو الثامن على الأقل ، وقد حدث هذا للدولة الرومانية قبلها حيث دام ربيع عمرها ـ إلى عصر النمو والنشاط البالغ وتدفق الحيوية والعمران من القرن الثانى قبل الميلاد إلى نهاية القرن الثالث بعده نحو خمسة قرون فلم يظهر تدهورها الحقيقى إلا فى القرن الرابع الميلادى ـ ولكن ضعف البناء السياسى لدول الإسلام وهشاشة تكوينه نتيجة لقيامه على غير قواعد الإسلام وخروجه عن منهجه جعلها ـ من الناحية السياسية ـ تدخل فى دور الشيخوخة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، أما من الناحية الحضارية ، والحضارة دائماً من عمل الشعوب ـــ فإن التدهور والدخول فى مرحلة الترف المفسد تأخر قرناً من الزمان ؛ لأن أمة الإسلام ظلت مرتبطة بالعقيدة والقرآن والسنة مما حفظ لها إطارها ومكّن لها من مقاومة الآثار المفسدة التى دخلت على البناء السياسى الفاسد : وهى الاستبداد والظلم والعدوان على كرامة الإنسان ومحاربة الفكر

الحر الذى ينبغى أن يكون أساس حضارة الإسلام ولبابه وطابعه المميز له بين حضارات الأمم .

وإذا كان الأدب ـــ شعرًا ونثرًا ـــ والفكر ـ الذى ارتبط ارتباطًا وثيقاً بعلم الكلام ومذاهب الاعتزال ـ قد تأثرت كلها بالعوامل السياسية فضلت طريقها وفقدت الارتباط الضرورى بالأمة وروحها فتحول ـ فيما يتصل بالشعر والنثر ـ إلى إنتاج لفظى زخرفى لا يعبر عن حقيقة نافعة ، أما فى بقية ميادين الفكر الإسلامى التى سلمت من شرور السياسة فإن شبابها ظل متدفقًا ، ويتجلى ذلك فى ميادين الفقه ـ وسنتحدث عنه فى فصول قادمة من هذه الدراسة ـ ويليه التاريخ والجغرافية والرياضيات والطب والصيدلة والأعشاب وما إلى هذا مما يدخل فى نطاق ما نسميه بعلوم الحياة .

ويتجلى هذا الشباب ـ أو ربيع الفكر العربى ـ بصورة واضحة جداً فى ميدانين هامين من ميادين علوم الحياة وهما التاريخ والجغرافية ، ذلك أن علم التاريخ ـ فى كل عصر وفى كل الحضارات ـــ هو مظهر إحساس الأمة بنفسها وارتباط أجيالها بعضها ببعض ، وبالنسبة لعلم التاريخ عند المسلمين نجده قد ارتبط منذ البداية بالسيرة النبوية وهى ميراثهم التاريخى الأعظم وهى ديوان السلوك والأخلاق الأكبر وقد عنى المسلمون بها عناية كبرى وتوفر على تدوينها نفر من أهل الدين والحس التاريخى والإحساس بكيان أمة الإسلام ، ولهذا فقد بدأ علم التاريخ عندنا بداية سليمة بالتأليف فى السيرة من تاريخ مبكر جدًا ، ووصل التأليف فى السيرة خلال القرنين الهجريين الثانى والثالث إلى تأليف جامعة تعتبر بالفعل من ذخائر التاريخ الفكرى العربى أولها وأقدمها سيرة ابن إسحاق المتوفى فى بغداد سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ ومغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ وطبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ .

وتستوقف نظرنا هنا سيرة ابن إسحاق وهو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولى بنى هاشم فإن سيرة النبى التى كتبها تعتبر دون شك أعظم ما كتبه القدماء فى سيرة الرسول ﷺ وأولاه بالثقة ، وقد كتب ابن إسحاق سيرته فى تاريخ مبكر قبل أن يتعالى بناء دول الاستبداد ويثقل بوزنه على نفس الفكر الإسلامى حتى تكاد روحه تزهق ، وقد كتب الرجل سيرة الرسول ﷺ كما وصلت إليه من الرواة الأول وَدَوَّنَها دون تكلف أو خوف من دولة أو سلطان ، وتلك كانت مشكلته الكبرى التى

عانى هو منها الكثير وعانى منها كتابه أكثر ؛ لأن الرجل كتب كتابه فى العصر العباسى وقال الحقائق كما وصلته ، والحقائق لا تعجب السلطان ، لأن دور العباس بن عبد المطلب فى تاريخ الإسلام الأول ـــ وقبل فتح مكة خاصة ـ كان دورًا لا يشرف بنى العباس ، فقد كان فى جملة أعداء الإسلام ومحاربيه وقد خرج فى جملة من خرج لمحاربة رسول الله ﷺ فى بدر ووقع أسيرًا فى أيدى المسلمين واضطر إلى فداء نفسه ودخل العباس الإسلام هو وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قبيل فتح مكة فى وقت واحد ولم يقم بعد إسلامه بدور كبير بل ظل مادياً ينظر لصالح نفسه وأهل بيته ويطمع فى ميراث الرسول ، وهذا الموضوع يجعل العباس وبنيه أدنى بكثير من وضع على بن أبى طالب وبنيه ، وما دامت رئاسة الأمة قد أصبحت ميراثًا سياسيًا فقد تحارب عليه أهل الأطماع ومن يرون أنفسهم أولى بالميراث من أمثال بنى أمية ثم بنى على بن أبى طالب وبنى العباس بن عبد المطلب وبنى الزبير بن العوام . فأما بنو أمية فقد أنكرت الأمة دولتهم وتمكنت من الخلاص منهم وانحصر النزاع فى بنى على وبنى العباس وتمكن بنو العباس من الفوز بالخلافة دون آل على بالخداع والحيلة ولم يتنازل بنو على وأنصارهم أبدًا عما كانوا يحسون أنه حقهم الشرعى ، وهنا نجد سيرة ابن إسحاق لا ترضى الدولة العباسية ورجالها وقد كان مولى من موالى بنى عبد المطلب حتى نسب إليهم وكان صديقاً للإمام جعفر الصادق ولهذا اشتدت الحملة على ابن إسحاق وكتابه وإن كان أبو جعفر المنصور نفسه قد تظاهر بالرضا عن الرجل وقربه إليه وأكرم مثواه عندما أخرجه الفقهاء من المدينة وعلى رأسهم مالك بن أنس واتهموه بكل نقيصة ، فمالك ابن أنس قال عنه إنه « دجال من الدجاجلة » وروى محمد بن إدريس الشافعى أنه كان يتحدث عن المغازى مع مالك بن أنس فذكر ابن إسحاق وقال إنه قال : أنا بيطار المغازى ! فقال مالك : نحن قصيناه عن المدينة . وقال أحمد بن زهير بن حرب : إن يحيى بن معين سئل عن ابن إسحاق مرة فقال : ليس بذاك ضعيف ، وقال عنه هشام ابن عروة بن الزبير : إنه كذاب خبيث ، وحكى أبو داود الطيالسى أنه سمع أحمد بن حنبل يذكره فقال : كان رجلاً يشتهى الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها فى كتبه ، وقال يحيى القطان : ما تركت حديثه إلا لله ، أشهد أنه كذاب .

والحقيقة أن محمد بن إسحاق لم يكن كذاباً ولا مدلساً إنما كان يثبت ما يصل إلى علمه ، وقد يكون فى الكثير مما يصل إلى علمه بعض ما لا يُرضى هذا أو ذاك ، ولكن ذلك

لم يكن ذنب الرجل ، فقد كان التنافس على العلم بالحديث النبوى فى ذلك العصر شديدًا جدًّا ، وكـان كل طالب علم يحب أن يكون بين من تـروى عنهم الأحاديث فيعطيهم ذلك مكانة كبرى عند الناس فكثر نقـد الناس بعضهم لبعض وتزاحموا تزاحماً شديداً حتى دفع بعضهم بعضاً بـالمناكب ، ولهذا كثر الهجوم على رجل مثل محمـد بن إسحاق رغم أنه أعرف أهل زمـانه بالمغازى ـ وأخبـار المغازى كلها تدخل فى السُّنـة النبوية ، وربما كـان من أشد مـا جلب عليه العـداوة أن بعض المعجبين به قـالوا : إنـه أمير المؤمنين فى الحديث ، ومالك بن أنس كان يحب أن ينفرد بهذا اللقب وهو يستحقه .

والذى لا شك فيه هو أن ابن إسحاق نجـح فى أن يكتب سيرة كاملة لرسول الله ﷺ صادقـة إلى حد كبير ، وقد يـدهش بعض القراء عنـدما أقول : إن هـذه هى أول مرة فى الحضارة العالميـة يكتب فيها رجل ترجمة حياة بهذا التفصيل وتلك الـدقة ، وأقصى ما بلغه اليونـان والرومان فى فن ترجمة الحياة هـو كتاب بلوتاركوس الـرومانى فى تراجم نفر من عظماء اليونان والرومان ، والمقـابلة بين حياة واحد من هؤلاء وواحد من أولئك وتـراجم بلوتـارك ليست شيئاً إلى جـانب هـذا العمل الهائل الذى قـام به ابن إسحـاق ووصفه المستشرق الفريد جيوم الذى نقله إلى الإنجليزية بأنه Man Mental .

ولا يقل ما عمله ابن إسحاق عما عمله الواقـدى وهو محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنـة ٢٠٧ هـ فى كتـابـه العظيم المسمى بـالمغازى أى : مغـازى رسـول الله ﷺ وهى الغزوات التى قـادها والسرايا التى أرسلهـا تحت قيادة بعض أصحابـه والبعوث التى كلف بها من رأى من الصحابة . فقـد أتانا هذا الرجل بكل تفـاصيل النشاط العسكرى للأمة الإسـلامية أيام الرسول ﷺ فى أكثـر من ألف صفحة حافلة بالتفـاصيل الدقيقة التى نستطيع أن نستخرج منهـا ـ إذا أردنـا ـ صورة كـاملة للمجتمع الإسـلامى أيام الرسول ، وأجمل مـا فى سيرة المصطفى أنها ليست ترجمة لحياته الكريمـة وحدها ، بل هى تـاريخ للأمـة كلهـا ، فقد كـانت المغازى هى العمـل الرئيسى لأمـة الإسلام أيـام الرسول ﷺ وما من صحابى ذى قـدر إلا له فيها نصيب كبير أو صغير ، وهذا النصيب يعطينا صـورة الصحابـى ومكانته ، لأن الجهـاد الدينـى هو ميـدان الامتحان الأكبر ، فالسيرة النبويـة هى تاريخ لأمة الإسلام ، والمغازى تعرض علينـا أجمل جوانب تاريخ هذه الأمة ، وإنك لتقـرأ كتاب المغازى للواقدى ويملكك العجب : هل هـذه الأمة العظيمة هى أسلافنا ؟ هل يعقل أن الأجيال التى تطـاحنت على السلطان السياسى خلال القرن

الهجرى الأول هى بنـاة جيل العصر النبوى ؟ كيف يمكن أن يأتى هذا الهبـوط كله من ذلك السمو كله ؟ لا بد أن شيئًا خطيرًا ما قد حدث فأخرج الأمة كلها عن الطريق السوى الذى كـانت فيه وانحرف بها إلى طـريق آخر تماماً أدى بها إلى عـالم غريب لا يمكن أن يكون هو عالم الإسلام .

وذلك الانحـراف البالغ هـو الذى زرع فى نفـوس المسلمين « عقدة العصر النبـوى والعصر الـراشـدى الأول » ، فإن المسلمين من العصر الـراشـدى الثـانى من منتصف خلافة عثمان وبداية الفتنة إلى يومنا هذا يسألون أنفسهم ، ماذا جرى لنا وماذا دهانا ؟ وكلهم يحلمون بأن يعـودوا إلى العصر النبوى والعصر الـراشدى الأول أو يعـود هذان العصران إليهم ، وهـذا مستحيل وذاك مستحيل ، ولكن الممكن وهو الـذى يستطيع أن يعملـه المسلمون هـو أن ينشئوا بأيـديهم عصراً راشدًا ثـانياً ؛ لأن الـذى جعل للعصر الراشـدى الأول ـ عصر أبى بكر وعمـر ـ هذا البهاء هـو أن أهله كانـوا يسيرون فيه فى منهـاج الله كـانوا يسيرون فى طـريق الصراط المستقيم الـذى سماه عمـر بن الخطـاب بالجادة ، وقـال : وأمَّا أنـا فو الله لأحملنهم على الجادة ، ومـا من مسلم إلا يعزم على أن يلزم الجادة جادة الـرسول وصحابته ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عنها ، وكـان معاوية ابن أبى سفيان يضع فى كف الرجل مائة دينار ويأمره بقتل ابن بنت رسول الله فينطلق يسابق الريح ليقتل ابن بنت رسول الله ثم يبكى بعد ذلك ويلتمس التـوبة ، وما أكثر ما يقول الناس فى زماننا وكل أزمان الانحـراف : ماذا تريد ؟ إننى بشر كأن ذلك ذريعة أو حجـة لارتكـاب أفدح الأخطـاء . والجواب على مثل هـذا التسـاؤل : بلى أنت بشر ولكن المطلوب منك إذا أردت أن تعيد العصر الراشـدى أن تكون فوق مستوى البشر ، فالبشر فيهم الضعف أمـام المال والجنس ، والمطلوب منـك أن تكون أقـوى من المال والجنس ، والبشر فيهم الخوف من الموت ، والمطلوب منك أن تستهين بالموت فى سبيل مثلك الأعلى ، فقد قـال رسول الله ﷺ لواحـد من الصحابة « يـرحمك الله ! » فقال عمر : وجبت لـه يا رسول الله . أى وجبت لـه رحمة الله بالاستشهاد قـريباً ، ففرح الـرجل واعتبرها بشرى واستشهد عن قريب قرير العين .

وسعد بن خيثمة الصحابى الأوسى الأنصـارى تزاحم مع أبيه خيثمة بن الحارث ابن مـالك على الشهـادة واستهما على ذلك أى اقترعـا بـالأسهم ، فخـرج سهم سعـد ، فاستشهد فى بدر واستشهد أبوه فى أحد ، هذا هو فوق « مستوى البشر » الذى أقصده ، وهو نفس المستـوى الذى تصـوره السيرة النبوية وهنـا حكمتها . أمـا مستوى البشر

فرخيص : تسرق وتقول : إنى بشر ، وتزنى وتقول : إنى بشر ، والطريق طويلة كلها وهاد ومساقط ، والقرآن الكريم يقول لك : أنت بشر فيما يتعلق بمطالب حياتك العادية ، فلك أن تعيش مرتاحاً راضياً طاعماً كاسياً حتى إذا طلب الإسلام منك شيئاً فلابد أن تكون فوق مستوى البشر فلا راحة ولا رخاء ولا طعام ولا كساء يساوى شيئاً إلى جانب الإسلام ، فالإسلام هو الأول وأنت الأخير ، وإذا استطعت أن تجعل نفسك أخيراً بالنسبة للإسلام وجدت نفسك الأول على البشر ، وتلك هي المعادلة البسيطة العسيرة التى حَلَّها الصحابة عندما باعوا أنفسهم لله فقبل الله بيعهم : ﴿ **إِنَّ الله اشترَى مِن المؤمنين أنفسَهُمْ وأمْوَالَهُمْ بأنَّ لهُم الجنةَ يقاتلون فى سبيلِ الله فَيقْتلُونَ ويُقْتَلُونَ وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أوفَى بعهدِهِ من الله فَاْستبشِرُوا ببيعكُم الذِى بايعتُمْ به وذلك هُوَ الفوزُ العظيمُ** ﴾ (التوبة ٩/ ١١١) ، ومن أسوأ ما يفعله المسلمون هو أنهم يريدون الفوز العظيم دون أن يؤدوا ثمنه .

وتلك أيضاً هى المعضلة التى يضعنا فيها علم التاريخ عند المسلمين ، فكل كبار المؤرخين حتى الذين كتبوا منهم مختصرات مثل أحمد بن واضح اليعقوبى يبدأون بالسيرة ، ثم يستمرون فى رواية الأحداث حتى أيامهم ، فتبدأ بالخط المستقيم ثم تجد الطريق ينحرف أمامك فترى مقدار الانحراف .

وربما كان هذا هو الذى دفع المسلمين إلى صرف الهمة إلى كتابة التاريخ والإبداع فيه ؛ لأنه عندهم الصلة بينهم وبين العصرين النبوى والراشدى : إنه الخيط الذى يصل الحلم الجميل بالواقع الأليم ، وحتى إذا لم يكن صاحب التاريخ متفلسفاً فإن فكرة الربط بين ما مضى وما هو فيه ترقد فى اللاوعى ، وهذا هو الذى حفز المسلمين على الإكثار من التأليف فى التاريخ ، فإن المكتبة التاريخية الإسلامية تجىء بعد كتب الفقه وعلوم الدين مباشرة من حيث الكمية والقيمة بالنسبة للتراث كله ، وإذا كان معظم أهل التاريخ من أبناء القرن الخامس وما بعده قد عاشوا فى ظلال الدولة وفى رعاية رجالها فإن مؤسسى علم التاريخ الأول كانوا يكتبون بدافع إسلامى عربى خالص ، وإلا فما هو دافع أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ ـ ٣١٠ هـ / ٨٤٠ ـ ٩٢٢ م) إلى تجشم عناء كتابة تاريخه المطول للإسلام ؟ لقد كتب تاريخه هذا بعد أن فرغ من تفسيره للقرآن الكريم وأحس أن واجبه يفرض عليه أن يسجل على هذه الأمة تجاربها

بادئاً بالسيرة النبوية ، وقد خصص قبل ذلك مجلدًا لتاريخ البشر قبل الإسلام وهو فى الحقيقة تاريخ الرسالات الإلهية قبل الإسلام مع تاريخ مطول للفرس . حقاً إن الطبرى لا يفلسف التاريخ ولا يبحث عن الأسباب ويحلل الحوادث ولا يستخرج أحكاماً ولكنه يضع الصورة أمامنا ويدعنا نحن نفكر ونرى مقدار الانحراف فى مسيرتنا ، بل إن الطبرى لا يكتفى بصورة واحدة للحادث بل يأتينا بصور متعددة للخبر الواحد حتى نرى المنظر من كل زواياه الممكنة ثم نستخلص بعد ذلك النتيجة التى نرتضيها .

كل هذا الجهد بذله الطبرى لكى يربط أجيال الأمة بعضها ببعض حتى يظل الخيط ممدودًا بين السابقين والمعاصرين ، فهو هنا يربط الأمة برابط الزمان وهو فى نفس الوقت يأتينا فى تاريخه بكل ما لديه من الأخبار عن الشعوب التى دخلت أمة الإسلام ، فهو لهذا ـ سنة بعد سنة ـ ينبه الأمة إلى رابطة المكان ويشعرنا بأن المسلم فى حدود الصين وغربى الهند هو أخو المسلم فى الأندلس والمغرب وذلك هو العمل العظيم الذى قام به المؤرخون ثم الجغرافيون المسلمون ـ واعين أم غير واعين ـ إنها المحافظة على وحدة الأمة فى الزمان والمكان ، وبينما كان رجال السياسة لا عمل لهم إلا تقطيع أوصال الأمة الواحدة وجعلها ممالك أو دول طوائف متعددة متناحرة كان عمل المؤرخ والجغرافى هو تجاهل هذه الفواصل لكى تظل أمة الإسلام واحدة فى الشعور والإحساس على الأقل ، وقد كانت كل دولة من دول المسلمين تجتهد فى تحطيم السابقة عليها وتشويه سمعتها ورجال الدولة بهذا كانوا يمزقون وحدة الأمة زمنيًا ، فالأمويون فى نظر العباسيين دولة غير إسلامية ، والعباسيون فى نظر الفاطميين دولة كافرة ، وكل دول المشرق تعتبر دولة بنى أمية فى الأندلس دولة خارجة عن إطار الإسلام فيصر المؤرخون على تذكير المسلمين بأن هذه الدول كلها إسلامية كلها فروع شجرة واحدة ..

تلك هى الوظيفة الكبرى التى قام بها المؤرخ والجغرافى فى تاريخنا الفكرى ، وسنواصل الكلام فى هذه الناحية فى صفحاتنا القادمة ..

***

أَهْلُ الْفِكْرِ وَبِنَاءُ وحْدَةِ الأُمَّةِ
وَعَالَمُ الْعُرُوبَةِ : المؤرخون

لقد ذكرنا فى الصفحات الماضية أن المؤرخين والجغرافيين قاموا فى تاريخنا الفكرى بوظيفة الربط بين أجيال الأمة وشعوبها ، أى أنهم عملوا على تأكيد وحدة الأمة فى الزمان والمكان .

وينبغى أن نضيف هنا أنهم قاموا بهذا العمل الجليل عن وعى منهم بالإسلام ودوره الذى ينبغى أن يكون له فى تاريخ البشر ، وربما كان الجغرافيون أوعى لهذه الوظيفة من المؤرخين فمعظمهم - وخاصة المقدسى - يقولون : إن دافعهم إلى الرحلة فى عالم الإسلام ثم وضعه فى كتاب هو تصوير مملكة الإسلام وتعريف شعوبها بعضها ببعض .

أما المؤرخون فقد شغلتهم الأخبار عن ذكر أسباب تأليفهم لكتبهم ، بل إن عميد هؤلاء المؤرخين ، وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى يكتب تاريخه الضخم فى عشرة أجزاء ضخام ولا يكاد يقدم لهذا الكتاب الهائل بمقدمة معقولة ، ولكن فكرة الوحدة التاريخية أو الزمنية فى كتابه واضحة جدًا .

بل إن واحداً من كبار مؤرخينا هو البلاذرى أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢م ، كتب فى تاريخ أمة الإسلام كتابين عظيمين : الأول كتاب « فتوح البلدان » يؤرخ فيه لاتساع أمة الإسلام جغرافياً ، فيذكر كيف تم فتح كل بلد من بلاد الإسلام ومن أهم أبطال ذلك الفتح ، وكيف كانت استجابة الشعوب للإسلام ، فكأنه يؤرخ لأمة الإسلام أفقياً ، ثم يعود فيؤرخ لها رأسياً فيكتب كتاب « أنساب الأشراف » فيأخذ بيوت العرب الذين أنشأوا الدولة ويذكر أنسابهم بيتًا بيتًا ، ويتحدث عن الظاهرين من رجال كل بيت فنعرف أجيال الأمة وتسلسلها بعضها عن بعض حتى نصل إلى عصر المؤلف ، بل إنه يذكر أنساب الأنبياء واحداً واحدًا حتى يصل إلى إبراهيم ثم ابنه إسماعيل ومن إسماعيل يتتبع الأنساب حتى يصل إلى محمد ﷺ فيذكر نسبه مطولاً ، ثم يخصص جزءاً كاملاً من كتاب أنساب الأشراف لرسول الله ﷺ فيقدم لنا

سيرة دقيقة أمينة متميزة عن غيرها بما يخصص من فصول لكل فريق من رجال أمة الإسلام وأعدائها من اليهود والمنافقين والمستهزئين ، ثم يواصل رواية أحداث السيرة حتى وفاة الرسول ، وهو يتميز هنا بصدق وصراحة وجراءة لا نجدها عند غيره ؛ لأن الرجل كان صادقًا أمينًا لا يقدم شيئًا على الصدق والأمانة ويكاد يكون الوحيد الذى يقف وقفة طويلة عند كل واحد من أعداء الإسلام ؛ لأن الأعداء يصنعون التاريخ كما يصنعه الأنصار .

من هذا الطراز من الصدق والأمانة كان أوائل المؤرخين الذين وضعوا أساس هذا العلم عندنا من أمثال محمد بن حبيب النسابة المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م وهو الذى أرخ لفتوح مصر والمغرب والأندلس ، أى لفتوح الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م ، وأبى الوليد محمد بن الوليد الأزرقى صاحب أخبار مكة ، وأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م صاحب تاريخ بغداد الذى لم ينشر منه إلا مجلد واحد ، واليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المتوفى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م وكتابه من أصغر الكتب التى ألفت فى التاريخ الإسلامى العام ، فهو يقع فى جزءين ، واحد منهما لتاريخ ما قبل الإسلام ، والثانى للإسلام وأخباره حتى أيامه ، وتاريخه لا يتميز فى مجموعه إلا بميله الشيعى ، ولكن له ـ بين الحين والحين ـ ملاحظات أو نوادر تستوقف النظر لنفاذها وعمقها ، وأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م صاحب كتاب « الأخبار الطوال » عن العصر الأموى وحروبه ومآسيه .

وهؤلاء هم أعلام مؤسسى علم التاريخ عند العرب وكتبهم كلها متشابهة من حيث مستوى المادة التاريخية ونوعها ، والخلاف بينهم يكون فى طريقة صياغة التاريخ فبعضهم يطيل الإسناد على طريقة المحدثين ، وبعضهم يختصر فيها أو يكاد يغفلها ، وبعضهم يذكر الأحداث فى نسق واحد فى حين يرتبها آخر على السنين ، وبعضهم دقيق وبعضهم الآخر أقل دقة ، ولكن طرازهم العلمى واحد واهتماماتهم واحدة ، فكلهم يهتمون بالسياسة وأحداثها لا يكادون يلقون بالاً إلى حياة الناس أو صور المجتمع الإسلامى ، وهم لا يلامون فى ذلك ؛ لأن علم التاريخ نفسه من العلوم التى لم يدخلها تغّير أو تطور إلا فى العصر الحديث عندما اتجهت العلوم كلها نحو العمق والصدق والتركيز على ما ينفع فى هذه الدنيا .

كل هذا الإنتاج الغـزير فى ميدان كتابـة التاريخ ثم قبل نهاية القرن الثـالث وبداية الرابع الهجريين (التـاسـع والعاشر الميلاديين) ويبدو أن أكبر ما دفع العـرب إلى كتابة تاريخهم هو اعتـزازهم بالسيرة النبوية ، وتعلقهم بها وفخرهم بالعصر الـراشدى وما تم فى نصفه الأول من فتوحات وانتصارات ، ثم دهشتهم وحسرتهم على ما وقع فى نهاية العصر الراشدى من مآس استمرت بعـد ذلك دون توقف ؛ لأن الحقيقة أن الذى وقع فى منتصف خلافة عثمان كان أمرًا عجيبًا ، وكأن الإنسـان العربى المسلم الذى بدأ حياته قويـاً باهـراً مبشرًا بكل خير أصابـه مرض عضـال مفاجىء أوقف نموه بـل أقعده عن المسير وأصبح كإنسان أصـابه شلل الأطفال وقـدر عليه أن يقضى بقية عمره جـالساً على كـرسى ، فالعـرب الـذين بنوا الـدولة وحملـوا عبء نشر الإسـلام حكم عليهم من منتصف عصر المعتصم أن يخرجوا من ميدان التـاريخ ويصبحوا متفرجين لا صانعى تاريخ ، والمصيبة أتت أولاً من سـوء فهم الناس فى عصر عثمان لمعنى الخلافة وتحولها إلى ملك ، وبنو أمية ـ وهم عرب ـ حكموا بالإعدام على العرب واضطهدوا العروبة ليظلوا ملوكـاً ، وهناك فكـرة شائعة تقـول : إن الأمويين اعتزوا بـالعرب وأقـاموا دولتهم على العرب وحكموا بهم ، وهذا خطأ فإن الأمويين عندما حولوا الخلافة إلى ملك غيروا طبيعة الدولة الإسلاميـة وجعلوها سلطاناً سياسيًـا ، وضربوا العرب بعضهم ببعض واتخذوا جماعـات منهم جعلـوهم جنـدًا مرتـزقًـا يأخـذ المال ليقتل آل النبى ويـرمى الكعبـة بـالمنجنيق ، وهو أمـر لم يفعله الجاهليـون أبدًا ، وكـان الكثيرون من رجال بنى أميـة وقادتهم موالى مثل موسى بن نصير وبعضـهم الآخر كانوا جلادين جلدوا ظهور العرب مثل الحجاج ابن يوسف وهذا الرجل وقف على المنبر وشتم عرب العراق جميعًا وسماهم أهل نفاق وهددهـم بقطع رقاب من يرفع رأسه منهم ، ودسـائس الأمويين جعلت عرب خراسان والمغـرب والأندلس يقتل بعضهم بعضاً ويرتكبون جنايـات لا تكاد تصدق ، وما رأيك فى رئيس من عـرب الأمويين وقع فى يده ابن منـافس له فحفر حفـرة ووضعه فيها وأمـر جنده بأن يبـولوا عليـه حتى مات . وفى مـواقع مثل مرج راهط قتـل العرب اليمنية ألوفاً من العرب القيسية بأمر الخليفة الأموى ، ثم يقولون لنا : إن الدولة الأموية كانت دولة عربية مع أنهم حـولوا العربى كما قلت لك إلى شليل على كرسى ومتفرج على التاريخ لا صـانع له ، وإذا كان بنو العبـاس قد أقاموا دولتهم على عـرب ساخطين على بنى أمية وموالٍ ساخطين على العرب ، فإنهم كانوا فى الحقيقة يكملون عمل بنى أمية .

ومن ذلك التاريخ ، أى منذ قامت دولة بنى العباس أخرج العرب من ميدان السياسة ولم يعد تاريخنا السياسى عربيًا ، والتناقض البالغ بين العرب صناع التاريخ فى العصرين النبوى والراشدى ، والعرب المطرودين خارج ميدان التاريخ فى العصر العباسى كان من الأسباب الرئيسية فى اهتمام الناس بعلم التاريخ عند العرب ، فإن الاعتزاز بقيام أمة الإسلام ثم الحسرة على ما أصاب العرب على يد خلفاء الإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الاهتمام بالتاريخ بحثًا عن أسباب هذه الكارثة ، وما من مؤرخ عربى إلا يبدأ تاريخه سعيدًا متهللاً بالسيرة النبوية ثم تنتابه الكآبة بعد ذلك وهو يؤرخ للعصرين الأموى والعباسى ، وعندما تقرأ كتابًا مثل « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة الدينورى تحس كأنه فى حيرة وأنه يكتب ليبحث عن حقيقة ما حدث . والطبرى نفسه عندما يصل إلى عصر المأمون تحس كأنه لا يكتب تاريخ العرب بل يسجل تفاصيل محنة قاسية نزلت بأمة الإسلام ، أو كأنه يعرض حيثيات حكم بالإعدام صدر على رجل برىء عاجز ، وهذا البرىء العاجز هو العربى الذى أصابه الشلل وأقعده طغاة العرب على الكرسى بقية عمره واحتاج إلى من يدفع به عجلات الكرسى لتسير به أحداث التاريخ .

ومعنى هذا أن التاريخ السياسى لم يعد عربياً ولا إسلامياً ، ولأنه أصبح كذلك فهو لم يعد تاريخاً طبيعياً يدرس تطور الأمة تطورًا عضوياً من الداخل كما ينمو كل كائن حى وكما ينبغى أن ينمو تاريخ الأمم الصحيحة التكوين المتينة البنيان ، وتلك هى مأساة تاريخ العرب كما بناه رجال السياسة وأهل الدول : بنوه بناء سيئاً من مواد مغشوشة وأبوا أن يكون تاريخاً عربياً ، وهل يمكن أن نقول إن الدولة العباسية مثلاً دولة عربية سليمة ؟ كل ذلك الذى كان عربيًا فيها هو اسم الخليفة فهو الواثق أو المعتضد أو المستعين ، أما الوزراء والكتاب فربما كانوا عرباً ، ولكنهم لا يحكمون بأخلاقيات العرب أو بمنهج الإسلام ، والدولة كلها تعتمد على جند مرتزق غير عربى ، وقادة الدولة يسمون أشناس وبغا ، ووصيف وتنكين ، والدستور السياسى كله ساسانى منحط ، والضرائب نهب لأموال الناس والمرافق مهملة ووطن العروبة والإسلام موزع قطعاً بين ناس من شرار الخلق : العرب منهم عرب بالاسم ، والمسلمون منهم مسلمون بالاسم ، أفكان عجباً بعد ذلك أن يكون نمو الدولة الإسلامية كله أوراماً خبيثة ؟

وحقائق التاريخ لا تتبين إلا بالمقارنات ، فسأضرب لك هنا مثلاً من نمو أمة سارت سيرًا قومياً صحيحاً لكى تقارن ذلك بما رأيته من نمو دول الإسلام ، لنأخذ فرنسا ، فهذه الأمة نشأت مع قيام دولة شارلمان خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، وملوك الكارولنجين من أبناء شارلمان عرفوا بعد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م كيف يجمعون أطراف جاليا ـ وهو الاسم القديم لفرنسا ـ حول رايته .

ملك فرنسى قومى وجنوده فرنسيون والأشراف المحيطون به فرنسيون ، وبيت الكارولنجيين حلت محله أسرة فرنسية لحماً ودماً هى أسرة الهيوكابية ، وتوالت الدول الفرنسية الأصيلة ، وكل دولة ملوكها وأشرافها ورجالها وجنودها فرنسيون ، حتى جاء ملوك البوربون بشتى فروعهم وعرفوا كيف يوحدون الوطن الفرنسى ، والملوك العظام من آل البوربون عظماء بقدر ما أضافوا إلى بنيان فرنسا وإظهار شخصيتها واستكمال أراضيها والعناية بعمران فرنسا وحضارتها ، ومؤسس أسرة البوربون وهو لويس الأول الكبير يعمل جاهدًا ابتداء من سنة ١٣٢٧ فى ضم الدوقيات الكبيرة التى كانت تتألف منها فرنسا ، ويحل محل بيت نافار سنة ١٥٥٥ ، وهنرى الرابع ينجح قبل موته سنة ١٥٨٩ فى ضم مملكة بزغنديا (يورجونيا وهى حوض نهر الرون كله) إلى عرش فرنسا ، وفرع أدواق أورليان من بيت البوربون يوفق بعد جهد طويل وحروب متصلة فى تكوين فرنسا بصورتها الحالية تقريباً ، ومن أيام لويس الثالث عشر تظهر فرنسا قوة سياسية كبرى فى غرب أوروبا ، قمة هذا النمو قبل الثورة الفرنسية كانت أيام لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) عصر لويس الرابع عشر يقابل فى تاريخنا عصر هارون الرشيد أو عبد الله المأمون ، ولكن أى فرق عضوى جوهرى ؟ عصر الرشيد والمأمون فى تاريخنا قمة ونهاية ، وعصر لويس الرابع عشر قمة وبداية ، عندنا فى عصر الرشيد والمأمون لا يحكم العرب ولا يتمتعون بالمكانة الأولى ، وكل الذين يتصرفون فى أمورنا لا يتبعون سياسة عربية أو إسلامية ، وهارون الرشيد عاش معظم عمره خارج بغداد ؛ لأنه كان يخاف من مؤامرات الفرس فى بغداد ، لهذا نقول : إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ؛ لأنه لم يعش فى بغداد إلا وقتاً قصيرًا جدًا ، والمأمون كان يرى فى بغداد مدينة معادية لكى يدخلها بعد نصره على أخيه الأمين وقتله ظل يحاصر بغداد سنتين ، معظم حياته قضاه فى خراسان ووزيره عبد الله بن طاهر كان عدواً للعرب . قارن بهذا رجال لويس الرابع عشر : تولى الوصاية عليه حتى بلغ سن

الرشد الأسقف الفرنسى ماذا رأى ؟ حتـى توفى هذا الأخير سنة ١٦٦١ بعد ذلك أشرف على المالية الوزير كولبير فوضع سياسة تشجيع ونهوض بالزراعة ، من ذلك الحين إلى اليوم يعتبر الزارع الفرنسى أقدر فلاح فى الدنيا ، والفلاحون الفرنسيون اخترعوا من الجبن وحده ١٤٣ صنفاً ، وكولبير وضع أساس الصناعة الفرنسية وأنشأ المدارس الصناعية التى قام عليها مجد الصناعة الفرنسية ، وتولى الجنرال « لوفوا » بناء جيش فرنسى قومى من رجال فرنسيين خالصين ، وظهر القائدان العظيمان تورين وكونديه ، وقام الجنرال فوبان بتحصين الحدود ، وكان رجال لويس الرابع عشر يعملون على رفعة فرنسا فى أوروبا وفى أمريكا الشمالية ، وكندا الفرنسية بنيت أيام هذا الملك وفرنسا كلها تألقت فى عصر الملك الشمس برواء لم يَخْبُ بعد ذلك أبدًا ؛ لأنه قام على نمو سياسى وحضارى فرنسى داخلى أصيل ، بعد لويس الرابع عشر فرنسا فى صعود دائم وبعد عصر المأمون : العرب فى هبوط دائم ؛ لأن رجال الدولة والحرب والسياسة لم يكونوا عرباً ولا اتبعوا سياسة عربية .

هنا فى الدول التى نمت نموًا داخليًا عضويًا قوميًا سليمًا نجد الأشياء كلها أصيلة ، وفى تاريخنا العربى لا نجد إلا الزيف ، وحفيد الخليفة الرشيد كان أسيرًا ذليلاً بيد الجند التركى المرتزق الذى اشتراه أبوه ليذل به العرب ، صورة واحدة تكفى لتصور لك مأساة السياسة العربية . قال المسعودى يصف قتل الخليفة المعتز على يد الأتراك : فدخل عليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس (حراب صغيرة) وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة وأشهدوهم على خلعه وسلموا المعتز إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة (جرعة) من ماء من بئر فمنعه ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه (أغلقوه وبنوه بالجبس) فمات .. وكان غريبًا من الأمر أن صالح بن وصيف شيخ الأتراك طلب من أم المعتز واسمها خديجة ولم تكن عربية خمسين ألف دينار ليعفى ابنها من القتل فرفضت وكان لها من المال والجوهر ما يقدر بالملايين (انظر ابن الأثير جـ ٧ والمسعودى مروج الذهب جـ ٢ ـ ٤٢٩ / ٤٣٠) .

وهنا لا تسلنى عن حال دولة الإسلام فقد تمزقت قطعاً ولم تعد هناك فى الحقيقة

دولة إسلامية ، وتلك هى المأساة الأليمة التى تجرد لتسجيل أحداثها مؤرخون ورجل مثل محمد بن جرير الطبرى كان يكتب وقلبه يقطر دمًا ، وكان دافعه إلى الكتابة هو الحسرة على ما صرنا إليه بعد العز الذى كان . كان غرضه الأساسى أن يقول لأمة الإسلام : لا تنسوا قط أنكم أمة محمد ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وهذا الذى حدث طارىء وضلال ولا بد أن تعود الأمور إلى نصابها ما دمنا متمسكين بوحدتنا كأمة وبمثلنا الأعلى العربى الإسلامى فى الوحدة والعزة ، هذا هو السبب فى كثرة التأليف فى التاريخ عندنا أنت تحس فى كتابات المؤرخين أنهم يقولون : إذا كانت الوحدة السياسية قد ضاعت فإن وحدة الأمة لا تضيع . كلهم كانوا يطوفون بنواحى العالم الإسلامى ليطمئنوا على أحوال الأمة ثم يكتبون فى التاريخ ليحافظوا على الوحدة الزمنية للأمة ، والمؤرخون العرب كثيرون جدًا بعد العصر الذهبى الأول لعلم التاريخ فى القرن الثالث الهجرى (وقد ذكرناه) وكلهم ساروا فى أعقاب محمد بن جرير الطبرى الذى كتب أجمل أجزاء تاريخه فى السيرة النبوية والعصر الراشدى والفتوح الإسلامية تمسكاً منه بالعز القديم حتى لا يطغى عليه التدهور الطويل ، سأكتفى هنا بواحد منهم يمثل هذه الفكرة أصدق تمثيل هو عز الدين بن الأثير .

وابن الأثير عربى من أهل الموصل عاصمة إقليم الجزيرة (شمال العراق فى العصور الإسلامية) وقد طوَّف فى بلاد العراق والشام وحج ثم عاد إلى مدينة الموصل واستقر فيها بقية عمره ، وكان فقيهاً محدثاً واسع العلم مقبلاً على الدرس والتأليف عمره كله .

وقد ألف ابن الأثير كتباً كثيرة فى التاريخ وعلوم الدين ، ولكنه مشهور بكتابين جليلين : الأول هو الكامل فى التاريخ العام ، والثانى كتاب من أحسن ما ألف فى صحابة رسول الله ﷺ ، وهو أسد الغابة فى معرفة الصحابة . والكتاب الأول ـ الكامل ـ يصور حرص المؤرخ الإسلامى على تتبع أحداث العالم الإسلامى فى ماضيه وحاضره المعاصر له ، فقد ظل يتتبع الأحداث حتى سنة ٦٢٨ هـ أى إلى ما قبل وفاته بسنتين .

وهو يبدأ هذا التاريخ العالمى منذ خلق الله الخلق ، وماذا خلق الله أول ما خلق ، ثم ماذا خلق بعد ذلك حتى آدم ثم حواء ، ويلى ذلك تاريخ الأنبياء واحدًا واحدًا ، وهو هنا يوجز ما عند الطبرى واليعقوبى دون زيادة كبيرة ثم ينقل عن الطبرى خلاصة لتاريخ الفرس ويزيد عليه فصلاً عن الجاهلية وأيام العرب حتى البعثة النبوية .

وتمسك ابن الأثير بذكر ما يتصور أنه تاريخ العالم قبل الإسلام يصور لنا نظرية أساسية فى مفهوم التاريخ العام عند المسلمين : وهى القول بأن التاريخ العالمى ينقسم فى جملته إلى ثلاثة عصور كبار يسميها ابن إسحاق ـ وهو أول من ابتكر هذه النظرية ـ « بالمبتدأ » ثم « المبعث » ثم « المغازى » . فأما المبتدأ فهو التاريخ القديم ، والتاريخ القديم عندهم هو كل ما سبق الإسلام ، وأما المبعث فهو سيرة النبى ﷺ وبناء أمة الإسلام على يديه ، والعصر الثالث أو القسم الثالث هو المغازى وهو بقية تاريخ العالم من وفاة رسول الله ﷺ إلى نهاية الزمان .

والمتأمل فى هذا التقسيم يرى أن مؤرخى المسلمين كانوا يرون أن البعثة المحمدية هى قمة التاريخ الإنسانى وكل ما سبقها تمهيد لها ، وكل ما كان بعدها إكمال لرسالة الإسلام أى تاريخ انتشاره حتى يعم الأرض ومن عليها ، والمغازى على هذا المعنى ينبغى أن تستمر إلى آخر الزمان .

ومفهوم المبتدأ أخذه المؤرخون المسلمون من كتاب العهد القديم وكانوا يعرفونه حق المعرفة ؛ لأنه يضم تواريخ الأنبياء من لدن آدم إلى موسى عليهما السلام ، ثم تلى ذلك تواريخ أنبياء بنى إسرائيل ومعظمهم أنبياء معترف بهم عند المسلمين ، ويتمسك المؤرخون المسلمون بذكر أولئك الأنبياء ، لأنهم يرون أنهم كلهم ممهدون لرسالة محمد ﷺ ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء وحامل أصفى رسالاتهم إلى البشر وهى الإسلام وهو ختام الرسالات وقمة الهدى الإلهى للبشر ، وبذلك يكون التاريخ القديم السابق على الإسلام هو البداية أو المبتدأ ، وهو يقابل ما يعرف فى كتب النصرانية بسفر التكوين The Genesis مع اختلاف فى المحتوى .

أما ما يورده ابن الأثير من تاريخ الفرس قبل الإسلام فقد سار فيه على طريقة الطبرى الذى خصص جزءاً كاملاً من تاريخه لتاريخ الفرس ، والطبرى مخطىء فى وضع هذا الجزء الكبير من تاريخ الفرس وإعطائه هذه الأهمية كلها فى التاريخ العالمى ؛ لأن معظم هذا الجزء يدور حول ملوك الفرس الساسانيين ، وهم أسرة يمجدها الفرس وإن لم تكن مجيدة فى تاريخ البشر فإن الساسانيين كانوا طغاة ظلمة فى مجموعهم ومساهمتهم فى التاريخ العالمى لا تقاس إلى مساهمات الفراعنة أو اليونان أو الرومان أو الروم البيزنطيين أو دول الصين العظيمة ، ولكن الفرس بعد الإسلام عظموا تاريخ

الساسانيين وضخموه وجملوه ليرفعوا من شأن جنسهم أمام العرب الذين قضوا على مجد فارس القديم وخلصوا الإيرانيين أنفسهم من طغيان الساسانيين ومذاهبهم الدينية وكلها وثنية وثنوية ومجوسية وعقائد فى غاية الانحطاط الخلقى .

وعندما تقرأ ما يذكره الطبرى من تاريخ الفرس وما اختصره عنه اليعقوبى ثم ابن الأثير تدرك كيف أن المؤرخين المسلمين كانوا فى الغاية من الغفلة فى أحيان كثيرة ، فإن هذا الإسراف فى تعظيم ملوك الفرس الساسانية فيه إضرار بصورة التاريخ الإسلامى نفسه ، فهم يبالغون فى تعظيم كسرى مثلاً حتى يبدو كأنه صنو عمر بن الخطاب ، وكسرى أنوشروان كان طاغية مستبدًا ظالماً ، فلا وجه لتعظيمه ، وهو دون شك أدنى منزلة حتى من صغار ملوك الفراعنة وفيما عدا ذلك فإننا لا نرى بأساً بالتأريخ لأكاسرة الساسانيين ، بشرط أن يوضعوا فى مكانهم بلا زيادة ، والطبرى عندما أفرد من تاريخه نحو نصف جزء لهم أدى بذلك خدمة للتاريخ العام ، فقد أتانا بأوفى تاريخ عرفناه لهذه الأسرة الفارسية الكبيرة البأس ، أتى من أن هذا التاريخ ليس صحيحاً فى جملته فقد صاغه فرس متحمسون لقوميتهم إعلاء لشأن جنسهم فى مواجهة العرب الذين أزالوا ملك الأكاسرة ، وقد نقل الطبرى كلام الفرس على علاته ورفع بذلك من شأن جبابرة ظالمين من أمثال أردشير بن بابك منشىء دولة الساسانيين وسابور وهرمز وبعرام وكسرى أنوشروان ، بل بلغت به الغفلة أن روى عن أنوشروان هذا حكايات فى العدل والفضل والعقل تجعله أعظم وأجل من عظماء خلفاء المسلمين من أمثال هارون الرشيد ، وما درى الطبرى أنه بهذا النقل عن الفرس أضر بقومه العرب كما أضر بهم عندما أفرد فى الجزء الأول من تاريخه نحو عشرين صفحة يحقق فيها فى أمر الذبيح من هو ؟ إسماعيل أم إسحاق ابنى إبراهيم ، عليهم السلام ؟ وانتهى التحقيق إلى القول بأن الذبيح هو إسحاق وهو الذى أطاع أباه عندما أبلغه أنه يذبحه تقرباً بدمه إلى الله ، ففداه بالكبش السمين ، وبذلك يكون الطبرى قد قرر أن بنى إسحاق وهم بنو إسرائيل خير من بنى إسماعيل وهم العرب ! وهذا مثال من غفلة علماء النقل الذين جعلوا العلم كله نقلاً نصيب العقل فيه قليل أو منعدم . والطبرى رجل واسع العلم ، ولكنه قليل الفطنة فى كثير من الأحيان ، وإذا كنا نشكو من الإسرائيليات التى أضرت بالفكر الإسلامى ضررًا بالغًا فلابد أن نذكر الإيرانيات أيضاً ، فقد تسرب الكثير

منها إلى الفكر العربى فأضرت به فى ميادين علوم الدين والأدب والتاريخ وكان ضررها بالفرس المسلمين بالغًا .

وابن الأثير عندما ينقل ما نقل من تاريخ الفرس عن الطبرى أبدى فطنة كبيرة فاستبعد الكثير من تفاصيل تعظيم ملوك الساسانيين ، وجعل من تاريخ الفرس تفريعات ألم فيها بالكثير من تاريخ الرومان والروم البيزنطيين والهنود والعرب الجاهليين ، مع أنه لم يكن موفقاً عندما جعل تاريخ الفرس محورًا للتاريخ العالمى ولو أنه أتانا بفصول طيبة تعطينا فكرة سليمة عن مدى ما كان العرب يعرفون فى القرن السادس الميلادى من تواريخ الأمم القديمة وما يتصل بذلك من تواريخ اليهود والنصارى ومذاهب النصرانية قبل الإسلام .

وبعد أن يدخل ابن الأثير فى السيرة النبوية يبدى ذكاء وحسن تصرف فى الاختصار والاختيار ، والسيرة النبوية التى يقدمها لنا فى مستهلِّ الجزء الثانى من تاريخه (بحسب طبعة المطبعة المنيرية التى يستخدمها هنا) سيرة جيدة رغم إيجازها ، ويستوقف نظرنا أن القليلين من أهل التاريخ المحدثين عندنا انتبهوا إلى مزاياها .

أما ما يرويه ابن الأثير من تاريخ الدول الإسلامية فيؤكد لنا ما أشرنا إليه من حرص المؤرخين المسلمين على إظهار وحدة الإسلام الزمنية والمكانية ، فهو عظيم الإحساس بقدر العصر الإسلامى الأول أو صدر الإسلام لا يزال يشير إليه فى تحسر ، وصدر الإسلام عنده هو العصر الذهبى الإسلامى ، فهو عصر الراشدين ووحدة المسلمين سياسياً وعقائديًا ، وعندما يروى أخبار الفتوح الإسلامية تشعر بالزهو بما يحكى من تفاصيلها ومن يلم بذكره من أبطالها ، وهو لا يشتد فى الحكم على بنى أمية حرصاً منه على عدم توسيع فجوات الخلاف بين المسلمين ، وعندما يدخل فى العصر العباسى وتتفرق وحدة الدولة نجد ابن الأثير حريصاً على أن يأتينا بأخبار دول المسلمين جميعاً من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهنا يتحول ابن الأثير إلى صحفى وأنت إذ تقرأ عنوانات ما يورد من الأخبار يخيل لك أنك تقرأ واجهة جريدة يومية ، وعنوانات الأخبار هى المانشتات ، فهناك مثلاً : هجوم الترك على بلاد الجبال و« ذكر حريق ضرب بلاد طخارستان » وأسطول المسلمين يقضى على أسطول للروم عند سواحل أقريطش و « عبد الله صاحب الأندلس يهزم جيوش الفرنجة » و « ذكر خسوف

كامل للشمس » و « أمواج البحر تبتلع جزيـرة بمن عليها » و « موت منويل ملك الروم الذى كان يريد الإيقاع بالمسلمين » .. وما إلى هذا من طرائف العناوين التى تعطى أخبار ابن الأثير جاذبية وطلاوة .

وهو فى كلامـه الكثير لا ينسى أى بلد إسلامى فهو يأتينـا دائماً بسير تاريخ دولة الخلافة فى بغداد ثم يأتينا بـأخبار المسلمين فى أقصى المشرق وفى هضاب إيران ومصر وبلاد المغـرب والأندلس وعينـه مفتوحـة دائماً على الصراع بين العرب والـروم فى آسيا الصغرى وشرق البحـر المتوسط ، وهو لا ينسى قط جزائر قبرص وأقـريطش وصقلية وأخبار الأنـدلس عنده كـاملة تقريبـاً لم يفته منهـا شىء يذكـر ، وقد جمع المستشرق فانيـان ما عند ابن الأثير من أخبـار المغرب والأندلس وصقليـة وترجمها إلى الفـرنسية ونشرها فى كتاب واحد يعتبر فى ذاته تاريخاً متصلاً للغرب الإسلامى كله .

عندما يتحدث ابن الأثير عن المرابطين وقيـام دولتهم فى شمال إفريقية الاستوائية نشعر أن الرجل يشعر بأهمية ما يروى مـن أحداث ، فهو يأتينا بأخبار ملوك السودان وما كان للإسلام من انتشار فى بلادهم ، وهو يقف عند يوسف بن تاشفين وقفة طويلة تدل على تقـدير وفهم ، ويحكى تفـاصيل الصراع بين المرابطين والأسبان حكـاية رجل ذكى يعرف أهميـة الأخبار التى يأتينـا بها ، وعينه لا تغفل فى نفس الـوقت عن الجناح الشرقى لدولـة الإسلام ، فهو يحكى أخبار الـدولة الإيرانية حتى أوائل القـرن السابع الهجـرى ، الثـالث عشر الميـلادى ويأتينـا بطلائع المغـول فى سيرهم المخـرب فى بـلاد الإسلام وكلامه كلام رجل واعٍ لوحدة عالم الإسلام .

فى هذا كلـه نرى أن ابن الأثير يحس إحسـاسًا واعيًا بـوحدة أمـة الإسلام ، فهى المحرك الأساسى له فى كتـابة تاريخه وإن الإنسان ليشعر بالإعجـاب نحو هذا العربى الواعى لوحدة الإسلام زمنياً ومكـانيًا ، الحريص دائماً على أن تظل للإسلام وحدته فى عقل رجل الفكر ، وإن كـان رجال الـدول والسياسة لم يـدخروا وسعًـا فى تمزيق هذه الوحدة .

وابن الأثير يأتينـا هنـا بصورة أليمـة من أفـاعيل ملـوك المسلمين وما جـرى على المسلمين من ظلم وهوان وذلك على أيـديهم ، وهنا ونحن نقرأ تاريخ هذا الـرجل الكريم نتبين حقيقـة كبرى وهى أن الفضل الأكبر فى بقـاء شىء يسمى العـالم الإسـلامى أو

العالم العربى يرجع إلى أهل الفكر دون رجال السياسة والحرب ، فرجال الفكر اجتهدوا فى الحفاظ على هـذه الوحـدة ولم يفرطـوا قط فى تـذكير المسلمين بضرورة الحفاظ على وحدة الأمة الإسـلامية ، وقد رأينا هنا طرفـاً مما قام به فى هذا المجـال رجال التاريخ ، وسترى صوراً أخرى فى كلامنا عن المسعودى والمقدسى ثم الجغرافيين .

وعندما نتحدث عن الفقـه والفقهاء سنتأكد بالدليل بعد الـدليل على ما قام به أهل الفكر فى عـالم الإسلام فى المحافظة على وحـدة الأمة حتى الشعراء الذين كـان حرصهم قليلاً على المثل الإسـلامية العربية العليا وفـرطوا تفريطاً معيبـاً فى واجب صاحب القلم تجاه شعبه حتى هـؤلاء خدمـوا أمة الإسلام بما قـالوا من شعـر بليغ حافظـوا به على مستوى رفيع من البلاغة العربية ، وإذا كـان الشعر نفسه قد خلا فى كثير من الأحيان من الإحسـاس العربى الإسـلامى فإن اللغة التـى قيل فيها هـذا الشعر كـانت رباطـاً مقدسـاً جمع شعوب العروبة والإسـلام بعضها إلى بعض ، ورجل مثل المتنبى لم يكن لديه إحساس واضح بوحدة شعوب العروبة ، ولكن تلك العروبة استخدمت شعره رمزاً لجمال لغة العرب وإبـداعها ، وهذا نفسه عـاد بالمثوبة على المتنبى نفسـه ويثاب الرجل رغم أنفه كما يقول الحديث الشريف .

* * *